الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

إستراتيجيّات الخطاب في النّادرة العربيّة

_ كتاب البخلاء أنموذجا _

مذكرة مقدّمـة لاستكمال متطلبات شهادة الماستر في اللّغة العربية وآدابها.

تخصص: علوم اللغة

إعداد الطالب:

بن عامر عبد القادر

إشراف الدكتور:

مدّور محمد

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	اسم ولقب الأستاذ(ة)	الدرجة العلمية	الجامعة	الصفة
01	الأستاذ برجي عبد القادر	أستاذ مساعد (أ)	غرداية	رئيسا
02	الدكتور مدّور محمد	أستاذ محاضر (ب)	غرداية	مشرفا و مقررا
03	الدكتور بن سمعون سليمان	أستاذ محاضر (ب)	غرداية	مناقشا

الموسم الجامعي: (1436هـ – 1437هـ / 2015م– 2016م)

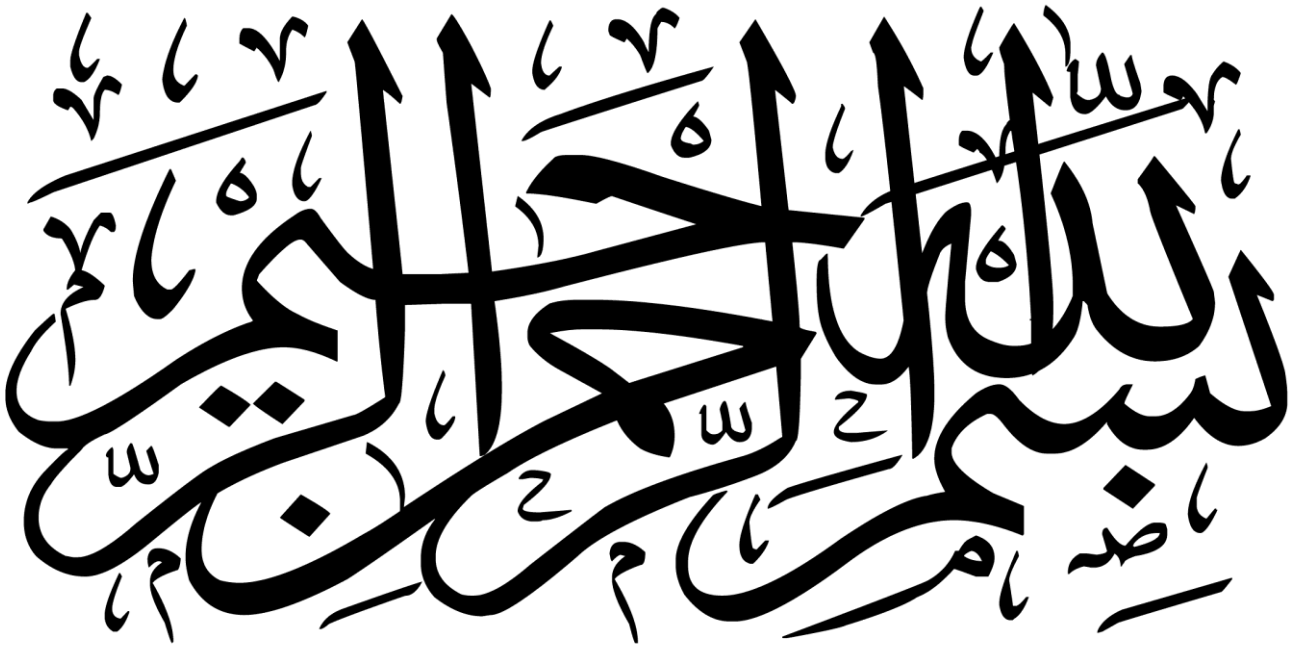
بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّ مصيبة اللّسانيات أنَّ موضوعها اللّغة وبما أن العالم لغة واللّغة لغة ،سيظل يلهث وراء استلزامات لغوية أبدية تحت رايات الاختلاف إلاَّ في ألوانها ؛هي شكليّة بانينيّة، و عامليّة سيبويهيّة ومقوليّة زمخشريّة ونظاميّة سوسوريّة، وإبداعيّة تشومسكيّة، واللائحة تطول طول الزّمن العقلانيّ، أمَّا الزّمن الحقيقيّ؛ لحظةً ولغةً، فيعلمه خالقه.»

قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، حافظ إسماعيل علوي – امحمد الملاخ.

شكر وعرفان

نحمد الله على كريم عطاءه وفضل جوده وامتنانه على ما أمدّنا من الجهد والصّبر في إتمام هذا البحث.

ونشكر شكرا جزيلا الدكتور: محمد مدّور على صبره معنا وعلى إسداء النصيحة وإمداد العون طوال سنين الدِّراسة الجامعية.

ونشكر كل من قدّم لنا يد العون.

الملخص:

يعد المنجز اللساني الغربي آلية إجرائية يتلمس بها الدرس اللساني العربي للتراث في مقاربة تبغي التأصيل تارة والسلطة تارة أخرى، وهو عموم ما يشاهد في الدراسات الأكاديمية العربية، لدى ارتأينا المقاربة التداولية بدراسة استراتيجيات الخطاب في النادرة العربية، وممثلة في كتاب البخلاء للجاحظ محاولين استثمار السياق غير اللغوي وخصوصية الجنس الأدبي في فحص البنية التداولية للمدونة تنظيرا أما تطبيقا فقد حاولنا البحث في استراتيجيات الخطاب الصانعة لجنس النادرة العربية، مستخلصين أهم النتائج المتوصّل إليها والتي كانت في أنَّ النادرة العربية عند الجاحظ تصطبغ بالإستراتيجية التي تصنعها، كما أن استراتيجيات الخطاب ميزة تأسيسية، تمييزية للجنس النادرة العربية.

الكلمات المفتاحية : التداولية – الجنس الأدبي – النادرة – السياق

Abstract

The western linguistic achievement is considered as procedural mechanism plead with the Arabic linguistic course, and the heritage in an approach which sometimes seeks the origin and sometimes the authority ,and that most of the Arabian academy studies are looking for , so that we would like to study the pragmatic approach by tackling and studying discourse strategies in the Arabian joke in the misers book by Djahid, then by trying to focus on the non-linguistic Arabic context ,besides to the specificity of the literary type , in examining the pragmatic structures of the corpus, moreover, seeking for the discourse strategies made for the Arabian joke type, and finally concluding the most important achieved results.

Keywords: pragmatics, literary type, joke, context .

مقدمة

بسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الموروث العربي القديم باختلاف منطلقاته وتوجهاته ومشاربه، يظل معين الحضور الحضاري الأساس إذا عرفنا كيف ننهل منه، وماذا نأخذ منه، كل هذا تماشيا مع روح العصر لجعل التراث العربي و نصوصه معاصرة لنفسها و إعادة التاريخية لها.

وقد توجه البحث الأكاديمي اللغوي المعاصر في عمومه إلى محاولة الاستفادة من المنجز اللساني الغربي في محاولة التفاعل المثمر البنّاء إن على الصعيد اللّغوي أو الأدبي، ومن هذا كان موضوع بحثنا في إطار التحضير لاستكمال نيل شهادة الماستر، تخصص علوم اللغة، رغبنا أن يكون موضوعنا هو: استراتيجيات الخطاب في النادرة العربية- بخلاء الجاحظ أنموذجاً- .

وتبرز أهميّة الموضوع في كونه يمارس منهجا لسانيّا تداوليّا لقراءة نصّ من نصوص التّراث العربيِّ النّثريِّ، فهو يحاول أن يقارب ليدرك توافقية المنهج الغربي، وتلاؤميته – قدر الإمكان مع نصوص التراث العربي، كما تتضح الأهمية الإحيائية لجنس من أجناس الأدب العربي النثري القديم بات كالمهمل ألا وهو النادرة.

أما عن أسباب اختيار الموضوع، فلأن نصوص الجاحظ أحد النصوص المؤسسة في المنظومة الأدبية والبلاغية، إذ لا يكاد يخلو مقال أو بحث أو كتاب يمتّ إلى الأدب والنقد من ذكر الجاحظ وعرض آرائه، وبيان وجه الطّرافة فيه، حتى غدا شهادة لمن أراد للأدب والنقد والبلاغة إصلاحا، هذا من الناحية الموضوعية، أما من الناحية الذّاتية، فإعجاب بأسلوب الجاحظ الأخّاذ، وميل قديم إلى التّنكيت ولا يزال.

ويحاول البحث الوصول إلى جملة من الأهداف والتي هي كالتالي:

- محاولة إعمال المنهج التداولي كآلية تجنيسية، تتحكم في منطلقات تكوين الأجناسي للنصّ.

- معرفة الآليات والاستراتيجيات التداولية الصانعة لجنس النادرة.

-كيفية توظيف الجاحظ لاستراتيجيات الخطاب في كتاب البخلاء في ظلّ استثماراته للعناصر السياقية.

وللوصول إلى هذه الأهداف البحثية ارتأينا صياغة الإشكالية على النحو التالي:

كيف تعدّدت وتحدّدت استراتيجيات الخطاب لجنس النادرة العربية في كتاب البخلاء عند الجاحظ؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية و هي الآتية:

- كيف تحددت البنية التداولية للنادرة في كتاب البخلاء؟

- ما موضوعات النصّ وسياقاته في النادرة العربية في كتاب البخلاء؟

- ما الإستراتيجيات الصّانعة للنادرة العربية في كتاب البخلاء؟

وقد انتهجنا في بحثنا هذا المنهج التداولي الذي فرضته الإشكالية المطروحة محاولين إدراج روافد التداولية في كل جزئية تساهم في توضيح ومعرفة البنى التداولية، مع إعمال الوصف والتصنيف والتحليل والتفسير كآليات في معالجة الدراسة وتحليلاتها، ولما كانت المنهجية تتغيّا السهولة والوضوح في العرض والمعالجة العلمية فقد مارسنا الإلحاق السريع للجانب النظري بالجانب التطبيقي لتتجاور التنظيرات مع التطبيقات.

ومن حيث الدراسات السابقة، وجدنا عدة دراسات تتقاطع مع بحثنا ألا وهي:

- استراتيجيات الخطاب في رواية الثلاثة لمحمد البشير الإبراهيمي لصاحبها إبراهيم ابراهيمي وقد طبعت على شكل كتاب، وهي في الأصل رسالة ماجستير في علوم اللسان من جامعة قالمة- الجزائر 2010م تحت إشراف الأستاذ الدكتور بلقاسم بلّعرج، التي فصّلت في الجانب التطبيقي وقد استفدنا منها استفادة معتبرة في التحليل.
- إستراتيجية الخطاب في أخبار الثّقلاء، مقاربة تداوليّة. وهي مذكرة ماجستير، لصاحبتها صفية حمادو، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2015م، تحت إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى درواش.
- إستراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي، لصاحبتها دليلة قسمية، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، 2012م، تحت إشراف الدكتور محمد بوعمامة.

أما خصوصية بحثنا فتتمثّل في إدراج الجنس الأدبي وهو النادرة عند الجاحظ ودراسته دراسة تداولية تعالج استراتيجيات الخطاب.

وللإجابة عن الإشكالية الرئيسة، والأسئلة الفرعية حاولنا وضع خطة بحثنا كالتالي:

عرّفنا فيها البحث في المقدمة ثم عالجنا في التمهيد إشكالات الدرس الغربي في تلاقحه مع الدرس اللساني العربي في عمومه، ثم وضعنا المبحث الأول في الجنس الأدبي والسّياقي لكتاب البخلاء دارسين في المطلب الأول البنية التداولية للنص، أمّا المطلب الثاني فقد تحدثنا فيه عن النّص وموضوعه والسيّاق وتنوعاته في كتاب البخلاء، أمّا المبحث الثاني فقد رصدنا فيه الاستراتيجيات الخطابية تعريفا وتحديدا ومعاييراً، في المطلب الأول منه، أما المطلب الثاني فقد عالجنا استراتيجيتي التّضامن والتوجيه وفي المطلب الثالث فقد درسنا استراتيجيتي التلميح والإقناع.

و لمّا كان لكل عمل بشري مصاعب ومشاق وعوائق، فقد واجهتنا صعوبات بحثيّة أهمها:

– التضاريس الأسلوبية الوعرة بين قامات سامقة، ثاقبة النظرة إلى فعالية العطاء الجاحظي، وبين كتابات باهتة، هزيلة تموت على شواطئ التأمل الضعيف.

– المقاصد الخفيّة والعميقة للنّصوص، وتداخلاتها النفسية والاجتماعية والحضارية، اصطبغت في هذا كله بالحذر الشديد، والارتياب المفرط، والمراوغة الذكيّة التي زادت من عمق هذه المقاصد التداولية التي يعمل البحث على النظر في استراتيجياتها.

– تعدد زوايا النظر الحداثية إلى تراث الجاحظ مع وفرة الكتابات المختلفة المشارب والمنطلقات لغةً ونقداً.

ولا يسعنا في الأخير إلا أن نشكر الدكتور المشرف: محمد مدّور على وقوفه معنا لإنجاز هذا البحث، وإمداده يد العون، وثقته الكبيرة التي زادتنا مثابرة وثباتا في طريق البحث.

ولـمَّا كان كل منجز بشريٍّ يعتوره النّقص، فما كان من حسناته فمن توفيق الله وعونه وما كان من سيئاته فمني ومن الشيطان، وكما يقول العماد الأصفهاني: «إنّي رأيتُ أنّه ما كَتَبَ أحَدُهُم في يَومِهِ كِتاباً إلا قالَ في غَدِهِ، لو غُيّرَ هذا لَكانَ أَحسن ولَو زُيِّدَ ذاكَ لَكانَ يُستَحسن، ولَو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضل، ولو تُرِكَ ذاكَ لَكانَ أجمل، وهذا مِن أعظَمِ العِبر، وهو دَليلٌ على استيلاءِ النّقْصِ على جُملَةِ البَشر.».

فالله نسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون ذُخرا لنا في الدنيا والآخرة.

عبد القادر بن عامر

يوم السبت 21 شعبان 1437

الموافق لـ 28 ماي 2016

ثنية المخزن، غرداية – الجزائر–

تمهيد

التمهيد:

تتعدّد زوايا النظر إلى اللّغة بين التشكّل والحضور، لكنَّها تبقى في جوهرها الكليّ هي الإنسان كما يقول عبد الله الغذامي: «اللُّغة هي الإنسان »[1].

وقد عايش الفكر الإنساني اللُّغة في تطوراتها المختلفة بداية من اكتشاف الكتابة في الحضارة المصريَّة 3600 قبل الميلاد، لكن يبقى العمل التأصيلي التنظيري للغة بارزاً في أعمال اللغوي الهندي " بانيني " في كتابه " المثمن " الذي يُعدُّ من إرهاصات التَّنظير اللُّغوي العالميّ، ثم توفّر المخزون الإنساني على طاقة تفكيريّةٍ مع الحضارة اليونانيَّة، والتي حاول أصحابها بناء صرح المعرفة مُتماسكاً مَتيناً؛ برز هذا في أعمال الفلاسفة (أفلاطون وأرسطو)، هنا نجد التأريخ اللغوي الغربي يُهمل مساهمة العرب المسلمين في تطور الفكر اللغويّ كما يرى مازن الوعر: « ولو التفت الغرب المعاصر إلى التأريخ اللغوي للتراث العربي لكان علم اللّسانيات الحديث في مرحلة متقدمة عن الزمن الذي هو فيه، وهذه الحقيقة شاركني فيها عالم اللّسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي خلال حوار كنت أجريته معه سنة 1982 .»[2].

ثم برزت الثورة اللّسانية التي كان قادحُ زِنادها العالم السويسريّ " فردناند دي سوسير"[3] بمقولة دراسة " اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها " مستخدماً المنهج البنيويّ في دراسة اللغة.

لكنَّ أهم منعرج في الفكر اللّغوي الحديث هو النظر إلى اللغة في إطارها العام الذي يتجسّد فيه وهو المجتمع، وبعد أن ساهمت الدراسات الأنثروبولوجية بقسطٍ واسعٍ في هذا المضمار فقد استخلص مالينوفسكي بعد دراسات عدة: « أن اللّغة ليست علاقة مقابلة للفكر، وإنما هي نمط من النشاط يتميز بما يتميز به أي نشاط اجتماعي تعاوني آخر.»[4]، و: « لقد بيَّن أنطوان ميّ (1886 –

---

[1]– عبد الله الغذامي ، الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، بيروت ، الدار البيضاء، د ط، 2004، ص68.

[2]– مازن الوعر ،"صلة التراث اللغوي باللّسانيات"، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ع 48 ، 12 جويلية 1992، ص 54.

[3]– ينظر: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ،ط1 ،2010، ص18.

[4]– عبده الراجحي ، اللغة وعلوم المجتمع ، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان ،ط 2 ، 2004 ،ص26 .

1936) في العديد من النصوص، الطابع الاجتماعي للّغة أو بالأحرى قد حدّدها بوصفها ظاهرةً إجتماعيّةً .»[1].

ونجد كذلك جهازاً إجرائياً مكن لهذه الوجهة من النَّظر؛ هو الاتجاه التداولي الذي يرى أن اللّغة تؤثر في العالم قبل أن تكون مقتصرة على الوصف فقط.

إشكالية التراث واللسانيات:

إنَّ خُطورة قراءة الطَّريف بالتَّليد يتداخلُ فيها المنهج بالموضوع وثقافة بثقافةٍ أخرى، كون التراث اللّغوي العربي من بيئةٍ مغايرة تماماً عن البيئة التي وردت منها اللِّسانيات، وهو حديث يجرُّنا إلى إشكالية قاتلة تنخر العقل العربي الحديث والمعاصر، والذي يتجه فيها البحث الأكاديمّي العربيّ في عمومه إلى محاولة إيجاد صيغةٍ توافقيةٍ بين الموروث العربي القديم "التراث" والمنجز اللِّساني الغربي الحديث و هو إتجاه يحاول: « تجاوز المناهج اللّسانية المتصفة بالصرامة التفصيليةّ من المقارنة إلى التاريخيّة حتى البنيويّة ويُؤالِف بين ثلةٍ صالحةٍ من المستفادة بها والمستفاد باللسانيات الوظيفيّة والاجتماعية لينفُد إلى تجليّات الإبداع الماثلَةِ في النَّصوصّ .»[2]، وهذه التجليّات في بعدها الإبداعي هي مسعى اللِّسانيات التداوليّة.

إنَّ محاولة النَّظر إلى اللسانيات العربيّة الحديثة والمعاصرة، لابد أن يصدر من هذا التأزم والالتباس الذي تعيشه، وهذا يُلزم بضرورة التساؤل المعبَّر عن الأزمة و: « لا يتردد كثير من اللسانيّين العرب في وصف الواقع الذي تعيشه اللسانيات العربية بالأزمة .»[3].

لكنَّ مصطفى غَلْفان يختلف معهم في تصوَّره لهذه الأزمة فيقر بـ : « أنَّها أزمة أُسُسٍ؛ أي أزمة في المنطلقات الفكريّة والنظريّة والمنهجيّة، التي تؤسس مجالاً معيناً وتحدد معالمهُ، إمّا بعدم وضوحها بالشّكل الكافي، وإمّا لكون التراكم المعرفي المتوفر في هذا المجال قد وصل إلى الطريق المسدود في

[1]– لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي ،تر : محمد يحياتن ، دار القصبة ، الجزائر ،دط، 2006 ، ص:11 .

[2]– عثمان أبو زنيد، نحو النص اطار نظري ودراسات تطبيقية ،عالم الكتب الجديدة ، عمان ، الأردن ، ط1 ،2009 ص: 02.

[3]– مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في الأسس النظرية والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (04)، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة فضالة المحمدية، د ط، ص:263

مستويي التحليل أو النتائج أو هما معاً، مما يتطلب إعادة النّظر في الأسس والمبادئ العامة التي يقوم عليها هذا المجال .»[1].

ويضع مصطفى غلفان علاقة البحث اللساني بالتراث ضمن العوائق الصوريّة المرتبطة بكنُه الدرس اللّساني، إضافة إلى غياب تطور علميٍّ دقيقٍ ومضبوطٍ للغة العربيّة، باعتبارها الموضوع الأساسيّ للدَّرس اللسانيّ، وتحضر هذه العوائق في الأدبيَّات اللسانيَّة العربيَّة على مستويين:

1-مستوى موضوع الدَّرس اللسانيِّ.

2-المستوى النّظري و المنهجيِّ[2].

وعند حديثه عن لِسانيّات التراث يفحص المنجز اللسانيِّ العربيِّ فحصاً يُحاول فيه سَبْر المميزات والعوائقِ فيسردها في نقاطٍ:

أ- القراءةُ بين التأويل الذاتيِّ والطرح المنهجيّ :

تُركز أغلب لسانيَّات التراث على تأويل النّصوصّ واستنطاقها مع عَزْلها عن سياقاتها فهي: « لا تهتم بالتراث إلاَّ في إطار ما تستهدفه من وراء عملية مُمَارِسةً نوع الانتخاب والانتقاء، ونزع النصوص من سياقها التاريخي، ثم إعادة زرعها في سياق جديد .»[3]، ثم يتساءل مصطفى غلفان عن موضوعيّة لسانيّاَت التراث في ظل غياب منهجيّة محددة. لكننا في بحثنا هذا نحاول قدر الإمكان إستثمار السِّياقات النَّفسيَّة والاجتماعية والثقافيَّة، مع عدم قدرتنا على التنصل من الانتخاب والانتقاء، وهذا ما يجعل من التَّحليل النّقدي أساسا يرتكز عليه، إن على مستوى الإجراء النّقدي أو التّدليل النّصي.

ب _القراءة ونظرية العلم :

إنَّ المتابعة الإبستمولوجيَّة لِمَا يكتبه لسانيُّو التراث تكشف عن: « فهمٍ عامٍّ لمضامين النظريَّة اللسانيَّة وإدراك غير واضح لها بسبب تداولهم إيَّاها تداولاً حدسياً وتلقائياً .»[4].

---

[1]- مصطفى غلفان، مرجع سابق، ص:265.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص:267.

[3]- المرجع نفسه، ص:147.

[4]- المرجع نفسه، ص :151.

لذا فإنّ هذه القراءة تهدف إلى البرهنة على صحة البحوث اللغويّة العربيّة من خلال مقارنتها بالبحوث اللسانيَّة وهذا يتنافى مع مفهوم النظرية وشروطها، إذْ يجب أنْ تكون النَّظريةُ قابلةً : « للإبطال أو على الأقل قابلة للتجاوز .»[1]، فإذا كانت قابلة للإبطال؛ فهذا يعني وجود أسس علمية تؤسس لما هو لاحق، وإن كانت قابلة للتجاوز؛ فيعني وجود شروط تؤسس للاحق انطلاقا من السابق.

في حين يكون ما تنادي به لسانيَّات التراث متمثلاً في قابليّة الفكر العربي للقولبة والاندماج في مجموع النظريات اللسانية الحديثة أمرا مستحيلاً ، على الأقل من الناحية النظرية.

ج _القراءة والعمل اللساني:

إنَّ الموضوع الأساسيّ في لسانيَّات التراث ليس هو دراسة " اللُّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، كما يصرَّحُ بذلك دي سوسير فهي: « أقرب إلى العمل الفيلولوجيّ من حيث أنَّها تضع شروح مساعدة على فهم النُّصوص .»[2].

لذلك لم تُفدنا النَّتائج المتوصّل إليها عن طريق المقارنة أو التشابه اللذان تقف عندهما لسانيات التراث نظراً لتباعد أهدافها وأهداف العمل اللساني الصِّرف[3].

د_ حدود لسانيات التراث :

إنَّ هُويَّة التراث اللُّغويّ في علاقته بالنَّظريَّات اللِّسانيَّة وتنوعها نجده، يتلون ويصطبغ *بها* فعديد الدراسات في تناولها للنَّحو العربيِّ تُوضِح بأنَّه بنيوي ثم دراسات أُخرى توضح أنَّه توليدي، ثم دراسات أخرى توضح بأنَّه وظيفي ؟!!. فهذا غير ممكن إطلاقاً لكونه يُوقِعُنا في: « مفارقة منهجيةٍ ومغالطةٍ إبستمولوجيَّة، فإنَّ مّا يكون بِنْيوّياً تصنيفيّاً لا يمكنه أنْ يكون في ذاته توليدياً تحويلياً، نظراً لاختلاف الأُسسِ النَّظريَّة والمنهجيَّة بين التَّصورين. »[4].

---

[1]– امحمد الملاح / حافظ إسماعيل علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، دار منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2009 ط1، ص:279.

[2]– المرجع نفسه، ص:155.

[3]– ينظر: المرجع نفسه، ص:281.

[4]– مصطفى غلفان، مرجع سابق، ص:158.

هـ _مقولة تجانس التّراث :

إنَّ فرضيَّة تجانس التراث تُعالج عند لسانيِّي التُّراث بوصفها "بداهة معرفية " تلغي الاختلاف والتناقض الذي يتحكَّم في مجمل منجزات التراث في مساره الطويل، لكننا نجد لسانيّات التُّراث تعتمد في المقاربة على مظاهر التشابه، لكن: « ما هو هذا التّشابه الذي يمكن أن يتمظهر في نمطين من التّفكير لكلٍ منهما شُروطه الموضوعيّة والذاتيّة التي أفرزته وخصائصه التّاريخيّة التي وجَّهته .»[1].

و_ الأبعاد الحضارية للقراءة :

إنَّ في توجهنا نحو قراءة الفكر اللغوي العربي القديم لابد أن نميز بين موقفين:

1- الموقف الحضاري: الذي يسمح لنا بمعرفة ذواتنا وإبراز خُصوصياتنا أمام تحديات العصر المتعددة.

2- الموقف العلمي: فالتُّراثُ نتاجٌ معرفيٌّ محددُ بإطارٍ تاريخيٍّ وثقافيٍّ، لذا لابد في التَّعامل معه باعتباره نتاجَ مرحلة من مراحل العطاء اللَّغوي الإنسانيِّ و: « عليه وَجَبَ التفريق بين طبيعة العمل اللِّسانيِّ باعتباره مُمارسةً، وبين البحث اللغوي بصفته إسهاما حضاريّاً .»[2]، وهو الفرق بين التنظير اللساني والتفكير اللغوي، لأن ما هو لغة يرتبط بالمجتمع، وما هو من مهام التنظير يرتبط بخصوصية التحليل اللساني تنظيرا أو تطبيقا.

تضعنا هذه العُجالة من الفَرش النَّظري للبحث في تموقع منهجيٍّ يحاول وضع البحث في إطار مُنتجٍ يُفْهِمُ خلفيته المعرفيَّة والإبستمولوجيَّة بدقّةٍ، محاولاً استيضاح نقاط التقاطع بين التُّراث واللّسانيات في منطقة الوعي التام والمؤرِّق بخطورة إعمالِ منهجٍ قرائيٍّ دخيلٍ على النَّص، لذا فنحن في تيقُّظٍ مُستمر يُحاول النَّظر في مفاصل اللّيونة في المنهج، وذلك تطويعاً له في مقاربته للنَّصِّ فقد :« صار مقبولاً منذ مدَّةٍ، عند الباحثين الإبستمولوجيّين المهتميّن بمناهج العلوم، القولُ بأنَّ طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعيَّة المنهج. »[3].

---

[1] – مصطفى غلفان، مرجع سابق، ص: 162.

[2] – احمد الملاخ، حافظ إسماعيلي علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص:284.

[3] – محمد عابد الجابري، التُّراث والحداثة – دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص:21.

علَّ ذلك يُثمر خصوصيَّة إجرائية نوعيَّة تُسهم في كشف خفايا الممارسة التحليليّة للمنهج التداوليّ من جهة، و تكشف من جهة أخرى آليات الممارسة الأدبيّة المقاصديّة الأجناسيّة في كتابات الجاحظ من خلال تتبع إستراتيجيات الخطاب في النّادرة العربيّة في كتاب البُخلاء.

المبحث الأول

المبحث الأول: كتاب البخلاء بين الجنس الأدبيّ والسّياق.

المطلب الأول: البنية التّداولية للنّص.

نَرُومُ في هذا المطلب وَضعَ النّص في بنيته التّداوليّة من مختلف الزّوايا والتّعالقات التي يمكن أن تشترك في بناء وصناعة المعنى، انطلاقاً من توضيح الأساسِ المعرفيِّ للخطاب النثريّ الحكائيّ (النّادرة) والمقامات التَّخاطبيّة المنتجة ضمنه، مع التركيز على خصوصية بناءات النادرة تداوليًّا، وتركيباتها اللغوية في علاقاتها مع السَّياقات الخارجية لتحقيق الرؤية التّداوليّة المتكاملة بين اللغةِ إنغلاقاً والسياق إنفتاحاً: « فالنّصوّصُ وحدات تواصليةٌ تتحقق لغوياً وتعمل كل منها في سياقٍ اجتماعي أكبر ويكمن في ذلك عدم إمكانيّة حقيقيّة في فهم النصوص بمعايير لغوية فقط. فلا يوجد موقف تامٌّ في ذاته، فالمعايير النّحويّة المحضة لا تؤدي عادةً دوراً مهيمناً في تحديد أنواع النصوص. »[1].

كما أنَّ فهم بنية الخطاب في صورته التّداوليّة يعني النَّظر إلى التمثل الذَّهني للأحكام في الخطاب، ثم الانتقال من رصد المتواليات في الجمل ومدى ترابطها واتساقها إلى رصد متواليات إستراتيجيات الخطاب، مع وضع النّصَّ في صورة متقابلة مع السياق الذي أنتج فيه[2]، وللوصول إلى هذا المبتغى من الفهم، ارتأينا انتهاج خطة تساؤلية تتحدد بمجموعة من الأسئلة هي كالتالي:

- لماذا وقع اختيار المرسل على هذا الجنس الأدبيَّ؟
- ما القيمة النفعيّة (التأثير) في هذا الاختيار الأجناسيَّ؟
- لماذا اختار المرسل هذا النَّوع من الموضوعات، وأيُّ بعدٍ تداولي يُؤشر عليه؟
- ما البنيات الصغرى والكبرى للنَّصَّ، و أيَّة قصديَّة يرومها المرسل من ذلك؟
- ما صلة الموضوع بزمن إنتاج الخطاب ومكانه ؟

---

[1]- زتسيسلاف واورزنياك، علم النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر،ط1،2003 ، ص:38.

[2]- ينظر: فان دايك، النص و السياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب،دط،2000،ص:176.

أ_ التعيين الأجناسي وطبيعته التواصلية :

يُعد النَّظر إلى النُّصوص بوصفها وحدات تواصليّة في الخطاب مساهمة فعّالة في حلَّ إشكالات التَّجنيس الأدبي، خاصةً المتعلقة بالتأسيس المعرفي للأدب، فـ: « المسألة الإجناسيّة؛ القاعدة التي عليها تتأسس الإنشائيّة القديمة والحديثة وتمكن من التعرّف على أنساق الكتابة والتأليف اللفظيّ.»[1]، كما يعتبر البحث في مسألة التعيين الأجناسي الطريق الأصوب لمعرفة ماهية الخطاب الإبداعي، وما يحمله من دلالات تمييزيّة ووظائف تعريفيّة تلقي بمشمولاتها على بنية النّص الداخليّة والخارجيّة فـ: «كل ثقافة تحتاج إلى تنظيم فضاءات منجزها الإبداعي إلى ضوابط ومحدداتٍ تميَّز على أساسها بين أجناس ذلك الإنتاج وأنواعه، ومن تلك المحددات ما يكون في النّص ذاته، ومنها ما يكون في مداخل النص وعتباته .»[2]، و لا يخرج هذا التصنيف الأجناسي عن سيرورة الزّمن، فهي تتماشى مع ديناميّته، فضلاً عن تجدد آفاق التلقي، وتحول النظر إلى الأدب بمعايير مختلفةٍ؛ لذا فإن المحددات والضوابط ذات صبغة تاريخيّة متولدة عن تصورات تتحكم فيها عوامل تطور مختلفة وتدخل فيها ملابسات جديدة في السياق بنوعيه اللّغوي وغير اللّغوي.

ومن هذه المنطلقات يمكننا اعتبار أنَّ: « الأجناس مؤسسات، ومعايير تتضمن انتظارات القارئ واستراتيجيات المؤلف وتوصيفات للأثر، تتفاوت غموضاً، والجنس بما هو معيار ثقافي يبدو في الوقت نفسه مقولة يُدرِك من خلالها كل واحد منا النّصوص الأدبيّة...إنّه يوافق عملية مَفْهَمَة أو عملية بناءِ مَقوليٍّ...فليست مشكلة الأجناس الأدبيّة إذن سوى شكل مخصوص للمشكلة العامة المتمثلة في بناء المتصورات. »[3]، والمتصورات مقاصد ضمنية تحمل في طياتها إجراءات بنائية كامنة وسابقة لكل ممارسة لغوية، سواء كانت إبداعية أو عادية فعملية التجنيس الأدبي برؤية تداولية تسبق بتصور يرتبط بمقصدية المتكلم أو المبدع.

[1]- أحمد الجوّة: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، دار قرطاج، تونس،ط1،2007،ص:07.

[2]- حمادي صمود: من تجليات الخطاب الأدبي، قضايا نظرية، دار قرطاج، تونس،ط1،1999،ص:85-86.

[3]- أحمد الجوّة، المرجع نفسه، ص: 19.

نستخلص من كلُّ هذا التأكيد على القيمة القصوى للجنس الأدبيّ كمفهوم مركزيَّ في تأسيس المعرفة الأدبيّة، وفهم بناءات التركيبيَّة والدلاليّة والتّداوليّة لأي منجز أدبي، وهو أداة فعالة في فهم ورصد الواقع الأدبيَّ بشتى قطاعاته وظواهره وقضاياه[1].

أما في إجرائيَّة التحليل فيمكننا أن نهتدي للمقاصد بالطريقة التي يضعها لنا أحمد المتوكل باحثين عن إستراتيجيَّات الخطاب الصانعة للمدونة عندنا، ويحاول أحمد المتوكل أن يحدد عملية إنتاج الخطاب عبر قوالب ثلاثة وهي: القالب التّداولي، القالب الدلالي، القالب النحوي، وفي تعالقها مع بعضها البعض تعطينا قالباً إبداعيا في إنتاج الخطاب الأدبي، لكن في عملية الفهم والاستيعاب التي يقوم بها المخاطب (الباحث) تبقى نفس المراحل، ونفس الترتيب ويعكس الاتجاه (القالب النحوي القالب الدلالي، والقالب التداولي).

ولذا نبدأ بالتعريف لهذا الجنس الأدبي في مصادره الرئيسة فنقول تُعرف النّادرة في المعاجم الأدبية بأنها: « تصوير قصصي موجز لحادثة مسليّة أو غريبة أو كاشفة أو طريفة. وهي تعرض شخصيات في أفعال توضح أو تُدعم أفكار معينة، كما تضيء أوجها بعينها في الشخصية .»[2].

وتتركَّز النّادرة في نقطة واحدة محددة، يخضع لها الحوار والمشهد الموصوف والشخصيات وهي تحول المفهومات المجرَّدة إلى مفهومات عينية، ذات طابع إنسانيّ، ولذلك فإنَّ لها مقدرة كبيرة على التَّأثير لكن يصطبغ مفهوم النّادرة في التراث العربي القديم، وبخاصّة عند الجاحظ بسماتٍ ومكوناتٍ تميزه عن باقي الأجناس الأخرى. فقد اعتنى الجاحظ عناية خاصّة بالنّادرة بوصفها نوعًا أدبيًا قائم الذات قصده الإضحاك والإعجاب (التعجيب)، ولشدة ارتباط وظيفتها ببنيتها وطريقة الكلام فيها وجب على حاكيها وناقلها إحترام خصائص اللُّغة لدى الطبقة التي ينقل عنها، ويشمل ذلك صورة الكلام ومخارجه وعاداتهم في أدائه، ذلك أن المقاصد :« قد تتم بالخصائص السلبيّة كالسخفِ والعجمة وهذا يعني أن الوظيفة ليست دائمًا رهينة مكانة النَّص في الفصاحة والبيان بل إنَّ فصاحتها

[1]- ينظر: فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمد علي الحامي صفاقس، تونس،ط1، 2001، ص:8.

[2]- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 1986، ص:365.

وبلاغتها في خروجها عن المألوف منها .»[1] و من ثمة يمكننا القول بأن القصد أولي قبل النظر في أسلوبية النّادرة.

وقد عَمِد عبد الواحد التُّهامي العلمي إلى تعريف النَّادرة وفق هذه الرؤية مقررًا بأنها: « جنسٌ أدبيٌّ مخصوص يَنْزِعُ مَنزِعِ الطّرافة والفكاهة والضّحك في الظاهر، أمآ في باطنها فهي نقد اجتماعي يهدف إلى الإصلاح، و من خصائص أدب النوادر الخفَّة والظَّرف، ويُشترط في الفكاهيَّ أن يكون صاحب ذكاءٍ يجعله يبحثُ عن الحيلة ويدبرُ الخطط وينسجُ خيوطها. »[2].

كما أن هناك ميزة ينبني عليها جنس النَّادرة –في نظرنا– هو قيمتها التَّواصليّة فهي دائماً تفرض وجود مخاطب بالفعل تتعامل معه على أنّه كائن موجود يتفاعل مع موضوعها فينحاز إيجابا معها، لأنها تصوغ الحقيقة وتدعمها بالبراهين والحجج المقنعة.

نستخلص من هذا أن الجاحظ قد حقَّق في اختياره لهذا الجنس من الأجناس الأدبيّة الأبعاد المقاميّة التواصليّة، كونها حملت سياقات لغوية تتماشى ومقصديّة الجاحظ في نقده لمجتمعه بصورة ساخرة، تكشف عن صراع في القيّم الأخلاقيّة والرؤى الفكريّة والثقافيّة المتعددة والمتداخلة، وقد ساعده هذا الاختيار مع ذكاءٍ لمّاحٍ ودعابة هادفةٍ وعلم دقيق بنفسيات شخوص نوادره إلى التأثير البالغ في المتلقي، مما خلد بخلائه في سجل تاريخ الكتب العربية؛ إذ عُدَّ كتاب البخلاء لحظة حاسمة حوّلت الضحكة الشعبيّة إلى شكل أدبيَّ تمثل في النّادرة. ولكن رغم ذلك لم يصرّح الجاحظ بأهداف نوادره، إلا أن القارئ الفطن يستشف الوظائف التّداوليّة للنّادرة

ب– موضوع النص وأبعاده:

يُعد مفهوم " الموضوع " بؤرة الاهتمام الأولى في الدراسات الدلاليّة التّداوليّة، فهو يبحث في إشكالية التمثيّل الدلالي لمضمون الخطاب، ودور المتلقي في بنائه، ورغم تعدد المصطلحات المعبِّرة

[1]– حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)منشورات الجامعة التونسية، تونس، دط،1981،ص:192.

[2]– عبد الواحد التهامي العلمي، " تجنيس النادرة بحث في المكونات والسمات "،عمان(مجلة ثقافية شهرية)، ع،عمان، الأردن، ص:67.

عن هذا المفهوم، من قبيل " إطار الموضوع " "صلب الموضوع " " الفكرة الرئيسة " فإنه يبقى وثيق الصّلة بالأشكال التي يتم بها تمثيلها لمضمون الخطاب[1].

أمَّا مع فان دايك فهو يعد الموضوع ميزة تصنيفية تنظيمية للمتتاليات النصيّة الكاملة في الإخبار الدلالي عنها، ومن ذلك فهو أداة إجرائية حدسيةٌ تقارب بها البنية الكلية للخطاب :« فمن أَوْلَى قد تكون الحدود من نوع (الموضوع، الأطروحة، الدلالة على الغرض) مطبقةً تطبيقاً حدسياً على أوسع وأطول مدى للخطاب .»[2]، ومن ثمة فهو المتصوَّرُ النّظريّ لوصف المعنى الإجمالي؛ أي موضوع النَّصَّ وهو البنية الكبرى، وبذلك فإنه يتألف من مجموع قضايا (البنيات الصُّغرى) لتمدنَّا في مجموعها برؤية متعالية، مجردة ومجملة للتمثيل الذّهنيّ الكلّي للنّص. وتتطرق النسبية إلى هذا المفهوم من كونه اشتُق من مجموعة القضايا (البنيات) الصُّغرى.

لابد من أن تواجه الدَّارس لمثل هذه النصوص الأمّات في الكتابة العربيّة صعوبات لسانيّة معرفيّة، فضلاً عن طول المدونة واختلاف موضوعاتها وتداخل الأجناس فيها، مع العلم أننا نركزُّ اهتمامنا على جنس النّادرة فقط.

لكن بالاستناد إلى المقدمة (خطبة الكتاب) الذي سطَّره الجاحظ في بداية كتاب البخلاء والذي سيكون سنداً في تدليل كثير من العوائق التي تصادف الباحث في استكشاف موضوع مدونته ويظل طرح التساؤلات الوسيلة الأنجع لاستيضاح معالم الطريق ومنها:

- ما موضوع النَّص ؟ وما بنياته الصُّغرى والكبرى ؟

- ما الجوانب التي تستوقف الدّارس تداوليّاً في مضمون خطابه؟

1-البنية الكبرى للنص:

يبدو كتاب البخلاء من النُّصوصّ المنفتحة على الأنساق اللسانيّة، وبخاصة النسق اللسانيّ التّداوليّ، في قبولها للتفاعل مع المتلقي والكشف عن مضامينها.

[1]- ينظر: ج.ب. براون، ج يول: تحليل الخطاب، تر محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، دار النشر العلمي والمطابع، الرياض السعودية، د.ط، 1997، ص:83.

[2]- فان دايك، مرجع سابق، ص:236.

أما عن تنوعها، وشساعة حجمها ومحتواها الخطابي، فهي ليست بالنُّصوص المحدودة الحجم والمضمون، وهذا يعني الإقرار المبدئي بصعوبة محاولة الانتخاب والبناء في التمثيل الدلالي للقضايا فيما بينها. إذ تبدو كل قضيّة ذات قوة حضور بالتّساوي والتَّزامن مع القضيّة الأخرى، لكن يبقى لتحديد موضوع المدونة أن نعتمد على زاوية النظر التداوليّة على العتبتين النّصيتين وهما: العنوان والمقدمة.

- **العنوان:** ويمثَّل العلامة الكبرى للنّص، فهو نقطة مركزية لشبكة علائقية بين مجموع الأبنية الدلاليّة المتوزعة عبر معيار النّص، باعتباره عقد إتفاق مضمر بين المرسل والمتلقي. كما يمكن أن يُعد العنوان نصًّا كليًّا في بنية مختزلةٍ لغويّاً، مكثفةً دلاليّاً تساعد على فهم النّص وكشف دلالته وقد جاء العنوان في كلمةٍ مفردةٍ من جمع تكسير وأداة تعريفٍ: ال / بخلاء، هذا من جانب. أمّا من جانب آخر؛ ففي علاقته بالعمل ككلّ، أي(قصص كتاب البخلاء) فلم يُؤخذ العنوان الكليُّ من عناوينها الفرعيَّة، حيث أنّنا لا نجد عناوين فرعيّةٍ تحت هذا الاسم داخل الكتاب، و إنما انتزع العنوان من السَّياق العام لنوادر هذه المجموعة[1]، وتبدو العناوين الفرعيَّة وصفيَّة إخباريّة، تُحدد تمفصلات الموضوع إلى أجزائه المتعددة، وتضطلع ببيان بُعد النَّصَّ في أصله المنطوق، والتي يمكن أن نجعل منها سبيلاً إلى مؤشرات " التحول الموضوعي " داخل النَّصِّ، فوجود هذه العناوين ليس لمجرد ملء حيزٍ أو فاءٍ زمانيَّ أو مكانيّ في النَّصِّ، بل هي مؤشر لساني تداولي له قصديته. فكل عنوان لنادرة من النوادر يحمل من قريب أو من بعيد المحتوى الموضوعي للعنوان الكلي.

إذ نجد داخل متن الكتاب عناوين عديدة لموضوعات متعددة، رغم كونها تشترك في موضوعة البخل، والتي يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أقسام بحسب ضياء الصَّديقي:

يحتوي القسم الأوّل منه على مجموعة من الرَّسائل والنَّصائح بين البخلاء الذّين سجّل لهم الجاحظ مواقفهم أو مذاهبهم في البخل؛ كرسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد، وإلى بني عمه الذين ذَّمُوا مذهبه في البخل ورسالة الكنديَّ، ورسالة أبي العاص وردِّ ابن التوأم عليه.

[1] – ينظر: فادية مروان أحمد الونسة، السرد عند الجاحظ، البخلاء أنموذجاً، أطروحة دكتوراه ، إشراف بشرى حمدي فتحي البستاني ،كلية الآداب، جامعة الموصل، 2005/2004،ص:26.

ويحتوي القسم الثاني؛ و هو القسم الأكبرُ منه على مجموعةٍ من النّوادر والقصص، وأمَّا القسم الأخير فقد أورد فيه الجاحظ أطرافاً من علم العرب في الطَّعام، وأنواعه وولائمهم ومناسباتهم مستشهداً بنصوص من القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ص) من السنة النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والسَّلف الصالحِ ونصوصٍ من الشّعر والنثر العربيّين[1].

- **المقدمة :**

يرى كل من " كينن " و" شيفلن " أنّ عتبة العنوان في تركيبها الاسمي لا تتوفر على القدرة الكافية على التمثيل الدلالي لمضمون الخطاب[2].

لذا فإنَّ نظام العتبة النَّصية الثّانية، قد يشفُّ لنا عن تمثيل دلالي أعمقَ، في محاولة لرصد محتوى الخطاب المقدَّماتي، فقد درج الجاحظ على تقديم مؤلفاته إلى الشخصيات المرموقة؛ فكتاب البيان والتبيّن قدّمه إلى القاضي أحمد بن أبي داود، وكتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات الوزير والكاتب فأجازه عليه، أمَّا كتاب البخلاء فقد أشار إلى أنه قدمه إلى عظيمٍ من عظماءِ الدولةِ ولكنه لم يبح باسمه، وقد رجّح كل من أحمد العوامري وعلي الجارم في مقدمة التحقيق لكتاب البخلاء، أن الجاحظ كتب " البخلاء " لواحدٍ من الثلاثةِ وهم:

- محمد بن عبد الملك الزّيات (وزير المعتصم والواثق).
- الفتح بن خاقان (وزير المتوكّل).
- ابن المدبِّر (وقد كان صديقاً حميماً للجاحظ)[3].

إنَّ القراءة المتأنيَّة للمقدمة تبيَّن أنَّ الجاحظ: « ليس وحده صاحب الكلام، فالعديد من المقاطع منسوبةٌ إلى القارئ، وأحياناً يكون من العسير الفصل بين الصَّوتين...الجاحظ أو قارئُهُ ...وربما يعرف القارئ أكثر ممّا يصرح به ويعلن عنه، ولعل القارئ بخيلٌ دون أن يعي ذلك تماماً

---

[1]- ينظر: ضياء الصديقي،" فنية القصة في كتاب البخلاء الجاحظ " ، مجلة عالم الفكر، مج:20، ع:04، الكويت، يناير- فبراير- مارس، 1990، ص:163.

[2]- ج.ب براون ، ج. يول، تحليل الخطاب، ص:43.

[3]- الجاحظ، البخلاء، تح: أحمد العوامري، علي الجارم، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر،ط1،1938،ص:03.

ولن يرتقي إلى الوعي الكامل بما يجول في نفسه إلاَّ بعد أن يُعمَّق معارفه ويقوم بدراسة مفصَّلةٍ للبخل. »[1].

كذلك فإنّه يمكننا اعتبار كتاب البخلاء :« وليمة أو مأدبة كبرى، تلتقي خلالها شخصيات من عدة طبقات ومشارب: مبذرون، بخلاء، أطباء، عمال، لغويون، طفيليون، متكلّمون وخلالها تقدم أنواع عديدة من الطّعام ...»[2]، ويقابل ذلك تنوعٌ في الموضوعات التي يطرقها الجاحظ فكل شيء مهيأ لإرضاء القارئ: « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حجةٍ، أو تعرَّف حيلةٍ لطيفة أو استفادةُ نادرةٌ عجيبة. وأنت في ضحكٍ منه إذا شئت وفي لهوٍ إذا مللت الجدَّ. »[3].

2_البنيات الصغرى للنّصّ:

لمّا كان تركيزُ الباحث على النّادرة العربيّة، من زاوية النظر الأجناسية، كان توقفه عند الأبنية الدلاليّة الجزئيّة الكامنة في أجزاء النَّصِّ على النَّوادر. كما جاء في مقدِّمة الكتاب خطاب الجاحظ لمن أهدى إليه كتابه، وعموم المتلقيَّن: « فأمَّا مَا سَأَلْتَ من اِحْتِجَاجِ الأَشْحَّاءِ ونَوَادِر أَحَادِيث البخلاء فسَأَوْجُدك ذلك في قصصهم – إن شاء الله تعالى– مفرقاً وفي احتجاجهم مجملاً. فهو أجمع لهذا الباب في وصف ما عندي دون ما انتهى إليّ من أخبارهم على وجهها. »[4].

بما أنَّ البنيات الصُّغرى تَشتركُ في مُجملها على موضوعة "البخل" في خصيصةٍ دلاليَّة، يطرحها الجاحظ على أرجوحة المفارقة فـ: « إنَّ الخاصيَّة الكُبرى للجاحظ هي ملاحظة معاصره عبد الله بن قتيبة (لائماً إيّاها عليها)؛ أقصد نزعته إلى قول الشَّيء وضَدَّه. »[5]، والأعجب أنَّ الجاحظ يحقق هذه المفارقة في كتابه هذا تحقيقا عجيبا يشتت به تركيز القارئ و يربك ذهنه، لذا فلا :« يَنبغي لنا أن ننسى هذه الخاصيَّة عندما نتناول بالدَّرس كتاب البخلاء الذي يجمعُ بين مدح البخل وذمِّه في

[1]– عبد الفتاح كيليطو،"صورة البخيل، بطلاً"، " مجلة فكر ونقد "، ع: 04،" مجلة إلكترونية" أسسها محمد عابد الجابري،1997،ص:03. موقعها على الشبكة http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/

[2]– عبد الفتاح كيليطو،" صورة البخيل بطلاً"، ص:04.

[3]– الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5،1990، ص:09.

[4]– الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تح: يوسف الصميلي، دار المكتبة الأصلية، بيروت، لبنان،دط،2012،ص:09.

[5]– عبد الفتاح كيليطو، مرجع سابق،ص:05.

آن. »[1]، فبداية الكتاب في بنياته الدلالية الأولى؛ يكتنفها الإبهام والازدواجيَّة: الاشمئزاز من البخلاء يصاحبه إعجابٌ بهم، و هجاء شُحِّهم يرافقه مدحٌ لفصاحتهم وبيانهم وقوة احتجاجهم[2].

ونجد أنَّ الجاحظ بعد كلَّ مجموعة من النَّوادر يوفَّر محطات دلاليّةٍ تّداوليّةٍ يشارك فيها المتلقي هذا الذي يقضُّ مضجعه إغراء الكرم، وفي الوقت نفسه الارتباك أمام ما يقتضيه ذلك من نفقاتٍ وتبعات. فالمتلقيَّ تتجاذبه نزعتان: الانكماش أو البروز، فلا أحد يلزمه أن يطعم الآخرين بُغية اكتساب المحبة بمؤاكلتهم؛ إنَّ دعاهم فأي تقصيرٍ وأية علامةٍ للبخل تصدر من جانبه سيعرضانه لانتقاداتهم، وسخريتهم اللاّذعة، وإنْ لم يدعهم فإنّه سيحكم على نفسه بالعيشِ محجوباً مجهولاً خاملاً، وطالما لم يحسن الأمر، سيبقى متحيّراً شقيّاً وفي هذا يقول الجاحظ: « وإن كانت الحروب بَيْنَك وبين طباعك سجالاً وكانت أسبابكما أمثالاً وأشكالاً، وأجبتَ الحزم إلى تركِ التعرّض وأجبت الاحْتِياط إلى رفضِ التكلّف، و رأيت أنّ من حصّل السلامة من الذمّ فقد غَنِم وأنَّ من آثر الثقة على التغرير فقد حَزِم .»[3].

من ثمة نستطيع القول أنَّ الجاحظ أحسنَ التوّظيفَ الدَّلاليّ للتحوَّل الموضوعيَّ في البنيات الدّلاليّة الصُّغرى بحركيّةٍ تفاعليّةٍ سلسةٍ ومرنةٍ في تَقَبُّلات المتلقيَّ، وهذا مكّن من توصيل مقاصد الجاحظ المرغوب فيها، في تصويرٍ بارعٍ وفهمٍ دقيقٍ لخوالجِ واعتمالات نفسيّات شخوصه، والذي زاد من تفاعليّة المتلقيّ؛ هو هذه المفارقة المشتركة بين القارئ وشُخُوص نوادر الجاحظ، التي قامت على ثنائيّات عديدة منها: الرَّفض والقبول والانكماش والبُروز والرَّغبةِ والرَّهبةِ ...إلخ، كلُّ هذا في طرحٍ هزليٍّ لموضوعة "البخل/ الكرم" تتأَرجح بين الدّوافع النفسيّة الفطريّة، و فُروضات الواقع الاجتماعي القاسي.

جـ – زمان الخطاب ومكانه:

يرتبط حدث إنتاج الكلام ارتباطاً وثيقاً بالسّيرورة الزّمانيّة والمكانيّة، لذا فلا غنى لأيَّةِ دراسة لسانيّة مقاميّة للخطاب، أن تغضّ الطّرف عن هذا الجانب المهمِّ في تحليل النّصوص ومدارستها

[1]– عبد الفتاح كيليطو، مرجع سابق، ص:06.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص:07.

[3]– الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، ص:04.

فمساحة المكان وامتداده الزّمنيّ اللذان يدور فيهما الخطاب، هما الحلقة التي تسمح للمتلقّي بالتّوغلِ إلى حقب الماضي أو التّطلعِ إلى آفاق المستقبل، والانتقال من مكان إلى آخر، فالقيمة التواصليّة مفروضة كونهما مؤشرا عِلّة وجود الأشياء وحصولها، ومن التساؤلات التي تُطّرح في هذا المجال من الدِّراسةِ:

- هل يمكن أن يكون زمن الكاتب مؤشراً تداوليّاً ؟

- هل توجد روابط بين زمن الكتابة والقراءة ؟

- كيف نظر الكاتب إلى حاضره ؟

- هل مكان الكتابة والتأليف له تأثير في تشكيل الخطاب؟

إنَّ الفهم الجيّد لهذا النّص من قِبل المتلقي يتطلب عدم إغفال هذا المكون السياقي الخارجي المهم فـ: « الفَضَاءُ الفَاصِلُ بَينَ زَمَنِ الكَاتِبِ وزَمنِ القارئ حَاسِمٌ في فَهمِ النص، فهناك فهم يَصُوغُه مُنتِجُ النص، وفَهمٌ يتنبأ به مُتلقِي النص »[1]، فالمتلقي لنصّ المدونة يجب أن يؤسّس فهمه من منطلق الإطار الزمانيّ والمكانيّ الخارجيّ الذي كان فيه ميلاد النص.

ونأتي الآن إلى الزمن الداخليّ، وهو مظهرُ تداوليٌّ يتحدد في الخطاب باعتباره فعلاً تواصلياً يقيم علاقة بين الكاتب والقارئ في سياق ما، ويقضي هذا المظهر الخطابّي الاجتماعي للتّواصل الاستعانة بعلوم إنسانيّة أخرى في التحليل، مثل علم النفس الإدراكيّ والإجتماعيّ والذكاء الإصطناعيّ[2] ونحاول رصد الخطاب من مكونَّ تداوليَّ مهم في المعالجة السياقية ألا وهو؛ زمن الخطاب، بشيء من التّفصيل والتّمثيل من متن الخطاب (كتاب البخلاء)، وذلك يتطلب تتبع سير الحدث في النَّادرة وتعدد أزمنتها، فالنَّادرة عند الجاحظ تقوم على ثنائية الإسناد والمتن، لذلك فإن زمن النَّادرة يتكون من ثلاثة أزمنة: زمن التلقي (السماع)، زمن الرواية، زمن النّادرة.

فالاستهلال يشير إلى زمنين، والمتن يشير إلى زمن ثالث، ويكون ترتيبها على النحو التالي:

الزمن الأول: هو زمن المتن، أي الزّمن الذي حصلت فيه أحداث النادرة.

---

[1]- زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص ، ص:84.

[2]- ينظر: جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا، دط، 1998 ،ص:96.

الزمن الثاني: هو زمن تلقي الجاحظ النّادرة وتقديمها للمستمعين أو القُرّاء. ولتوضيح ذلك نضرب مثالاً من نادرته: « حدثني المكي قال: كنتُ يوماً عند الغبري، إذ جاءت جارية أمه، ومعها كوز فارغ فقالت: قالت أمك، بلغني أنّ عندك مزملة، ويومنا يوم حار، فابعث إليّ بشربة منها في الكوز قال: كذبت ! أمي أعقل من أن تبعث بكوز فارغٍ، وترده ملآن ! اذهبي فاملئيه من ماء حبكم وفرّغيه في حبنا، ثم املئيه من ماء مزملتنا، حتى يكون شيء بشيء »[1].

فأحداث هذه النّادرة من قُدوم الجارية ومعها الكوز وردّه لها ثم عودتها، كلُّ هذه الأحداث تمثل الزّمن الأول، ولا يظهر في أي وقت حصل إلاّ أنّه في يوم حار، وهل حصل قبل يوم أو شهر أو عام أو أكثر من رواية المكي إلى الجاحظ فهو لا يُدرَك ولا يوجد عليه دليل.

والزمن الثاني: هو عندما روى المكي هذه النّادرة إلى الجاحظ.

أما الزمن الثالث: فهو الذي روى فيه الجاحظ النّادرة على المستمعين أو كتبها، وقدّمها إلى القراء في زمنٍ لاحقٍ.

وعندما تكون النّادرة بدون إسناد فإنّها تقتصر على زمنين هما؛ الزمن الذي حدثت فيه الأحداث لهذه النّادرة، وزمن رواية الجاحظ لها للسامعين، أو كتابتها للقراء، ومثال آخر عن الزمن في النادرة قوله: « تناول أعرابي من يدي سليمان بن عبد الملك دجاجة فقال له: يكفيك ما بين يديك وما يليك، قال الأعرابيُّ: ومنها شيء حميٌّ؟ قال: فخذها لا بُورك لك فيها»[2].

فغداءُ الأعرابي عند سليمان بن عبد الملك كان في زمن معينٍ، ورواية الجاحظ لها كان في زمن آخر. وبالاعتماد على ما تقدمه اللسانية كروبرت أوروكوني في حديثها عن زمن المتكلم الذي يُشكل محور ترتيب المبهمات الزمانيّة المختلفة، قامت كروبرت أوروكوني بتقسيمها إلى أربعة أنواع:

أ – المبهمات التزامنيّة: و تتمثل في تلك الظروف التي يقترن استعمالها ودلالتها بالحاضر مثل: الآن للتو، الحين ...إلخ.

ب – المبهمات القبليّة: وهي الدّالة على الزّمن المنقضي مثل: البارحة، الأسبوع الماضي السنة الفارطة ...إلخ.

[1] – الجاحظ عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، ص:54.

[2] – المصدر نفسه، ص:84.

ج – المبهمات البعديّة : وهي تدل على زمن الحدث غير المنقضي مثل: غدا، الأسبوع المقبل السنة القادمة ...إلخ.

د –المبهمات الحياديّة: مثل هذا الصباح، هذه الصائفة، وقد سمُيَّت كذلك لاختلافها عن المبهمات السابقة، وإلى جانب الظروف المبهمة نجد ظروفاً أخرى غير مبهمة تؤدي دورا مهما ضمن الحركية الزمنية الداخلية للخطاب[1]، نجد هذه المبهمات عند الجاحظ في نوادره مبثوثة بكثرة، لكنّ إختياريته لها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بمقتضيات النَّادرة، ونجد كذلك أن النّص غنيّ بالمبهمات الزمنيّة التي يوفر بها الجاحظ مقام التواصل القريب مع المتلقي، ناهيك عن تنوع المفردات الزمنيَّة الذي يدل على إدراك حقيقيّ لمفاصل التغير الزمنيّ ودقة توظيفه في النَّادرة الجاحظية، كما يدلّ أيضاً على إدراك دقيقٍ في توظيف الزمن في النادرة، وعلى ثروة لغوية لمعجم الجاحظ الزمني.

ولا يمكننا أن ننسى الزّمن الخَّارجي للنَّص الذي يمكن تسميته تحديداً زمن الكاتب، فهو يرتبط بالمرسل مبرزاً وضعية المرسل الزمنيّة من منظور المرحلية العمرية بتأثيراتها ومؤثراتها، ويمكننا أن نستشفّ ذلك من كتاب البخلاء؛ لأن الجاحظ قد ألفَّه في أُخريات أيامه، وهو مفلوج قد أنهكته السنين وبلغ من الكبر عُتيّاً، ففي إحدى نوادره التي أوردها جاء ما يلي: « صحبني محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلاً فلما صرت قرب منزله؛ وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده وقال: أين تذهب في هذا المطر والبرد ؟ ومنزلي منزلك وأنت في ظلمة، وليس معك نار وعندي لبأ لم ير النَّاس مثله، وتمرٌ ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له، فملت معه، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ، وطبق تمر، فلما مددت يدي قال: يا أبا عثمان، إنه لبأ وغلظه، وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً.»[2].

فهذا الخبر صريح في أن الجاحظ قد ألَّف الكتاب وهو في شيخوخته، وربما كانت هذه إحدى مميزاته، فهو ظلَّ حتى أواخر أيامه متمتعاً بروح الشباب قادراً على التقاط أعاجيب الحكايات عن النَّاس، في خاصيّة من بعض خصائصهم؛ وهي البُخل فعرضها على شكل حكايات وقصص وطرف ونوادر.

[1]– ينظر: عمر بلخير ، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط1، 2003 ، ص:81.

[2]– الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء ،تح: يوسف الصميلي، ص:113.

إنَّ الفضاء المكانيّ الداخليّ في نوادر البخلاء؛ هو الحيّز الذي يشتمل هذه الوقائع وتمثلها " الإشاريات المكانيّة " بتعددها وتنوعها التي يمكن تقسيمها إلى:

أ_ إشاريات خاصة: والتي تعبر عن الحيّز الخاص للحدث الذي يجمع بين أطراف شخوص النَّادرة أي البيئة الصغيرة التي تحدث فيها النّوادر.

ب_ إشاريات عامة: وهي التي تتجاوز تجسيد الحدث الخاصَّ لتعبر عن الأبعاد المعرفيَّة للنص كاشفةً عن مناطق خفيّة في ذات المرسل أي البيئة الكبيرة[1].

ففي كتاب البخلاء نجد الجاحظ لا يَغفَلُ عن ذكر المكان إذا كان ضرورياً لبناء النّادرة. أما البيئات التي أجرى بها الجاحظ نوادره، فتتمثل في أغلب الأحيان في المناطق التي عاش فيها أو اختلط بسكانها، وأول هذه البيئات هي بيئة البصرة، حيث عاش الجاحظ، وفيها تدور معظم نوادره حيث يمكن القول: « إنَّ الجاحظ في المقام الأَول هو قاصُّ مدينته التي لا يفتأ يشير إلى أبرز معالمها وضواحيها وشخصياتها ...»[2]، ومن مثل قوله: «قالوا: دعانا عبد الملك بن قيس الذئبي رجل من أشراف أهل البصرة، وكان عبد الملك بخيلا عن الطعام جواداً بالدرهم...»[3].

أو كمثل قوله: « قالوا :ابن أبي بردة قد خاف الجُذام وهو والي البصرة فوصفوا له الاستنقاع في السّمن، فكان إذا فَرِغ من الجلوس فيه أمر ببيعه ...»[4].

والبيئة الثانية في نوادر الجاحظ هي بيئة العراق بشكل عام كبغداد أو بعض محالها كالكرخ أو مدينة واسطة والمدائن، وهذه بعض الأمثلة عن ذكر هذه الأمكنة.

قال: « قلت لأحمد ابن هشام: وهو يبني داره في بغداد: إذا أراد الله ذهاب مال رجل سلّط عليه الطين والماء...»[5].

---

[1]- ينظر: إبراهيم براهيمي. استراتيجيات الخطاب في رواية الثلاثة لمحمد البشير الإبراهيمي، منشورات بونة للبحوث والدراسات عنابة، الجزائر، ط1، 2013، ص: 63.

[2]– هاني العمد، صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق، ط1، 1990، ص:85.

[3]– المرجع نفسه، ص: 86.

[4]– الجاحظ عمرو بن بحر، البخلاء ، تح: طه الحاجري، ص:84.

[5]– المصدر نفسه ص:86.

* المسلحة: هي التكنة العسكرية.

وذكره للكرخ كما قال: « حدثني صاحب مسلحة* باب الكرخ، قال لي صاحب الحمّام: ألا أعجبك من صالح بن عفان؟ كان يجيء كلّ سحر فيدخل الحمّام...»[1].

أما البيئة الثالثة التي أكثر الجاحظ من ذكرها فهي بيئة خُراسان وبخاصّة مدينة "مرو " لاشتهار أهل هذه المدينة بالبخل فيقول: « وزعم أصحابنا أنَّ خراسانيَّة تَرافقوا في منزل وصبروا على الارتفاق بالمصباح ... [2].

أو مثل قوله: « قال: أصحابنا يقول المروزي للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسه تغذّيت اليوم ؟...»[3].

أو تكون النادرة تربط بين العراق ومرّو مثل هذه النادرة : «ومن أعاجب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر، وذلك أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحجُّ ويتَّجِر وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤنته، ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقي: ليت أنيّ قد رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم إحسانك. قال فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك النّاحية فكان ممَّا هوَّن عليه مكابدة السفر، ووحشة الاغتراب أنَّ المروزي هناك، فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحط رحله عنده كما يصنع الرّجل بثقته وموضع أنسه ...»[4].

أما البيئّات الأخرى مثل الشام ومصر والحجاز، فإن ذكرها نادر، كما ذكر الجزيرة *في إحدى نوادره: « قال أصحابنا: نزلنا بناسٍ من أهل الجزيرة، وإذا هم في بلاد باردة...»[5].

يمكننا أن نستخلص من هذا كلَّه أنَّ الجاحظ في استعماله كثرة المبهمات الزّمنيّة قد ألغى هذه الفجوة بين زمن الكتابة وزمن القراءة، فالقارئ يحسّ أنَّ بخلاء الجاحظ يعيشون بيننا كنماذج إنسانيّة تتحقق في كلّ زمانٍ ومكانٍ، كما قد سطّر الجاحظ بعدسة دقيقةٍ؛ البيئة العبَّاسيَّة (البصرة خصوصاً)

---

[1]– الجاحظ عمرو بن بحر، البخلاء ، تح: طه الحاجري، ص:60.

[2]– المصدر نفسه، ص:84.

[3]– المصدر نفسه ، ص:54.

[4]– المصدر نفسه، ص: 82.

* الجزيرة منطقة واقعة بين دجلة والفرات.

[5]– المصدر نفسه، ص: 83.

عبر شؤون شخوصها باطلاع واسع، ووصف زمنيٍّ ومكانيٍّ بارع، صوّر فيه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في دقةٍ ومصداقية كبيرتين.

والبخلاء الذين صوّرهم الجاحظ جاء بهم من بيئته واستدمّهم من خُلصائه وخُلطائه ذوي الظّرف والدُّعاية والنَّادرة، إمّا من البصريين، وإمَّا من البغداديين وإمَّا من غير هؤلاء وأولئك، ممَّن سمع عنهم ورُويت له أخبارهم في البخل ومذاهبهم في الجمع والمنع، لذا يمكن القول أن مكان الكتابة عند الجاحظ كان له أثر كبير في تشكيل الخطاب، ورسم معانيه وتحديد مُنطلقاته، وإنفاد مقاصده.

المطلب الثاني: النص والسياق

لقد مكّننا الحديث عن البنية التَّداولية من سبر أغوار السيّاقات اللغويّة المتعددة في مدونتنا بكشف الضَّوابط الداخليّة التي تتحكّم في بنائها.

وبما أنَّ الدِّراسة التداوليّة تقتضي تضافر السِّياقات اللغويّة الداخليّة والسَّياقات غير اللغويّة الخارجيّة، وجب علينا استكمال جوانب التّحليل السّياقي واكتشاف العناصر المقاميّة، فهي ذات دور مهم في بناء النَّصَّ وتركيبه. التي يتم إعمالها من أجل الحفر في الوعي العميق؛ أو قل اللاوعي الصانع لتشكلات اللغة والمعنى، لذا وجب علينا: « البحث في ما " وراء اللغة " وما " وراء الدلالة " أي النَّظر في الوعي الذّاتي بالأحكام التي تتخذ بالنسبة للرصف والمعنى، وهي الأغراض النفَّعيّة التي يهتم بها حقل التداوليات. »[1].

غنُّي عن البيان أنّ البحث في السيّاقات التداوليّة هو مجموع تعالقات، تتحدّد من تداخل العوامل والمؤثرات النفسيّة والاجتماعية، لتصنع الملاءمة التكوينيَّة للحدث الكلاميّ، وتتمثل هذه الأفعال في المعرفة والرَّغبات أو الإرادة والتفضيل في الأشياء وآراء مستخدمي اللغة وأحكامهم وتصوراتهم وإنجازاتهم الاجتماعية، من جهة (مثل علاقة السلطة والصداقة) وكذلك علاقاتهم الاجتماعية، ومن جهة أخرى المهم أن يتساءل الدارس عن كيفية الترابط الحادث بين هذه المتتاليات الجُملية أو ملفوظات النّص المنطوق ؟ والمتتاليات الملفوظية التي تحقق إنجاز أفعال اللغة هي في النهاية

[1] – روبرت دي بوغراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص:90.

تعبير عن أداء أفعال وسلوك ومواقف اجتماعية وثقافيّة وسياسيّة... إلخ. وبهذا المنظور يتشكل الخطاب في صورته التواصلية بين المتخاطبين[1].

إنَّ الاهتمام بالسّياق أمسى مسألة ضرورية وحاسمة في مجال اللغة، ومعالجة نصوصها المنتجة حيث يسمح لنا بالحديث عن كيفية معرفة نسق اللّغة بناءًا ودلالةً بدقة ووضوح، ويمكّننا من تحديد دراسة العلاقات المتكونة بين السلوك الاجتماعي والكلاميّ في استعمال اللغة، وأيُّ استغناءٍ عن السّياق سيجعل التواصل متوتراً أو مستحيلاً.

ولا يفوتنا ما أكَدّه " جون سيرل " من خلال دراسته للمعنى، الذّي خَلُص منه إلى أنَّ المعنى الفردي الكامن في خطاب الأفراد إنَّما يستمد مشروعيته وحضوره مما يسميه " المعنى الجمعي " ذي الصيغة الإجتماعية[2]، أي أنّه وليد النَّسيج الاجتماعي والثقافي للفرد، وهو بهذا التّصور يذهب إلى القول بأنَّ الفعل اللغوي إنمَّا هو تعبير عن قصديَّةٍ جمعيَّةٍ، وهو ما يؤكّد البعد التواصلي للّغة.

من كل هذا يمكننا القول بأنَّ النص بهذا المنظور ما هو إلا لبنة اجتماعية ثقافيّة، تسرّبت إلى ذهن المرسل عبر تكوينه الذي يختزن في ذاته الخلفية المؤسِسة المدونة، وعلى هذا تمارس تأثيرها النّفسيّ والاجتماعي والثقافيّ في المتلقيّ من مُنطلق التّمارس الإدراكي الذهنيّ لهذه الجوانب.

أ_ النص والسياق النفسي الاجتماعي:

1_ تأثير النصوص:

إنَّ النُّصوص في أساس إنجازها تحمل نيّة التأثير عند مُرسلها، باعتبار أنَّ مفهوم: « الخطاب تلفظ حيث يفترض باثا ومستقبلاً، ويسعى الباثُ إلى التأثير في المتلقي حسب وجهة نظر بنفنست .»[3]، لذا نركزُّ في هذا الجانب على القوة التأثيريّة الإقناعيّة وبهذا نحاول توجيه هذا المفهوم نحو إجرائية تنتج معانٍ جديدة، بطرح التساؤل المهم وهو:

- كيف تُهيمن النصوص وتمارس تأثيرها على مستعملي اللغة سواء فرديّاً أو جماعيّاً؟

---

[1]- ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1،2004، ص:170.

[2]- ينظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع ، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1،2006،ص:165.

[3]- دومينيك مونفانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2005، ص:75.

وهكذا نكون قد وصلنا إلى ميدان علم النّفس الإجتماعي، وإلى ميدان التّواصل الجماهيري إذْ لم يعد المقصود الآن أن نسأل أنفسنا ما يفعله القارئ أو المستمع الفرد بالنص ولكن ما هي العوامل الاجتماعية التي تؤدي دوراً في الفهم النّصي؛ أي أن وجوه الفهم النّصي تستطيع أن تمتلك إستلزامات اجتماعية ؟ وبهذا الخصوص، فإن معالجة آراء مجموعة المستمعين ومواقفهم تؤدّي دوراً هائلاً في علم النفّس الاجتماعي، إنَّ هذا التساؤل –كما هو بدهي –. يُعد مركز تحليل سيرورات التّواصل الجماهيريّ في مختلف أشكال الخطاب وأنماطه[1].

رغم كثرة البحوث التجريبيّة المركِّزة على ما يمارسه التواصل الكلامي على الآراء والمواقف، فإنَّ علماء الاجتماع النَّفسيّ مازالوا يجهلون العوامل الدقيقة التي تؤدي دوراً في معالجة النّص، ومع ذلك نجد بعض المحاولات في هذا المضمار؛ ومن ذلك المبادئ الثلاثة الأساسية التي يمكن أن يُنظر بها إلى تكوين وتغيير المعرفة والآراء والمواقف بواسطة النصوص:

- **مبدأ الوظيفّية:** في أنَّ الشخص يطوّر نموذج المعرفة، وفق المواقف التي يستطيع استعمالها في عمله الإدراكي والاجتماعي، وستكون المعرفة ضرورية لإنجاز وجوه معينة من المواقف هي المهمة بالنسبة إليه لتنظيم هذه الوجوه وتأويل الواقع الاجتماعي.
- **مبدأ التّرابط الإدراكيّ:** وهو تحويل التكوين الذي تقوم به نصوص المعرفة والآراء؛ ولذا سوف نفضّل المعرفة والمواقف التي تتفق مع المعرفة والمواقف المستوعبة قبلاً.
- **مبدأ التّطابق الإجتماعيَّ والشَّخصيَّ:** يستوجب بالأفضلية على المعرفة والمواقف أن تتوافق مع الأفكار التأويلية التي يصنعها الفرد بنفسه وبعلاقاته مع مجموعة محددة من الأفراد[2]، ووفق هذا المنظور يمكننا اعتبار نصّ البخلاء نسقاً لغويّاً ذا بعدٍ تواصليٍّ؛ مُكوَّن من أبنية اجتماعية تمارس تأثيرها في المتلقي، من حيث إنّها بناء وتركيب مُعبِّر عن ذات اجتماعية بمشاعرها وأحاسيسها فيحاول أن يستكشف جوانبها، وفعل القراءة (المقاربة التداولية) هنا تعبير عن تواصل المتلقيّ مع المرسل، الذّات التي لها كينونتها وسياقها الحضاري المعرفي الخاص بها والمتلقي هنا أيضاً بصدد تأسيس علاقة معرفيّة إبداعيّة جماليّة مع مرسل لا يُعايشه زمنيّاً ومكانيّاً فيجهل

[1]– ينظر: علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2000، ص:84.

[2]– ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، ص:171.

الكثير من رؤاه، ومع ذلك فهو يحاول الاقتراب منه أكثر من خلال الملفوظات الصادرة عنه ولا يمكن للقراءة السياقيّة النّفسيّة الاجتماعية أن تكتمل ما لم يُؤخذ بالحسبان طرف المتلقي في العمليّة التواصليّة، ومدى استجاباته التي قد تكون الغاية القصوى في العمليّة الإبداعيّة في الكثير من الأحيان، وإن من يقرأ تراث الجاحظ يتبيّن له مدى اهتمامه بالقارئ أو المتلقي ويرى كيف يُداريه ويُقوّم حالته النّفسيّة عند استقباله للموضوع، وكيف يحاول دفع الملل عنه كلما وجد أن طول نفس الجدّ أدّى به إلى الملل، فيقف عند الحـدَّ ليروِّح عن نفسيّته بشيء من الهزل، فهدف الجاحظ في الأساس هو المتلقي أولاً وأخيراً.

ومن هنا نكتشف نظرة الجاحظ إلى القراءة عند المتلقي، وهي عنده انطلاقة للقارئ ونزهة تهذب أخلاقه، وتغني تجربته، وتوسع آفاقه، وإنَّ الضَّحِك الذي تحدث عنه في مقدمة كتابه (البخلاء) له الدور التهذيبي أيضاً[1]، وبهذا يُؤسس لسيكولوجيّة الضَّحك والمضحك، وقد سبق فيها غيره ممن تحدثوا عن هذه المسألة من أمثال: هنري برغسون وطبقها في أدبه[2]، بصورةٍ تواصليّة اجتماعية في مقامات تبدو حقيقةً إلى حدَّ كبيرٍ، فينقلب الضحك عنده وقاراً، والمزح جدّاً، ويتحقق النّفع أو الدور الإيجابيُّ لهما إذْ أحسن الجاحظ استخدامهما.

إنَّ الجاحظ على معرفة تامّة بالمتلقين ويرى أنهم ليسوا على درجة واحدة من الثقافة، ولا ينتمون إلى فئة اجتماعية واحدة، لذا نرى في مقدمة البخلاء مدى اهتمام الجاحظ بالقارئ، وتوقعه له بأن يجد له في كتابه: « ثلاثة أشياء: تبيُّن حجة طريفة أو تعرُّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة .»[3]، ونجد في بعض النَّوادر التي يمكن أن نعدَّها مؤشراً واضحاً على أنَّ الجاحظ معنيٌ بالقارئ تماماً، ويثق به ثقة تامّة، وإنَّ شدّة الواقعيّة عنده تأخذ هذا المأخذ، وذلك عند تعليقه على نادرة الرَّجل الذي حَكَّ شفته العليا من باطن الشفَّة حتى لا تأخذ إصبعه شيئاً من الغالية أو الطيّب الذي في شاربه. فيقول: « وهذا وَشبُههُ يطيب جِدّاً إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا

[1]- سميرة سلامي ،" إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ "، مجلة التراث العربي ، ع:106،اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، نيسان 2007، ص: 215.

[2]- المرجع نفسه، ص: 216.

[3]- الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء ، تح: طه الحاجري، ص: 05.

يصور لك كل شيء. »[1]، فيعوَّض بهذا التعقيب عمَّا فاته من تصويره له هذا من جانب، ومن جانب آخر لا يترك القارئ ينتهي تخيُّله عند قراءة النّادرة، بل يحاول معه أن يمتد إلى ما بعد القراءةِ وبذلك نراه يهتم بالقراءة وما بعدها أيضاً، ولو نحن نملك تنظيرات للقراءة (أي : نظرية القراءة) ولكننا لا نملك تنظيراً لما بعدها في النقد الحديث أو المعاصر (أي : نظرية ما بعد القراءة) إلا أن نأخذ مما كتبه الجاحظ منطلقاً لها. نؤسّس فيه لنظرية ما بعد القراءة من أصول تراثنا.

أمَّا حسين مروة، فيشير في سياق مشابهٍ لهذا إلى: « رسوخ الجاحظ في استبطان الدخائل النفسية عند النّاس و انتزاعِ ما تتحدث به النفوس من قرارة اللاوعي دون أن يدركه غير الذين أوتوا قدرة الملاحظة البارعة. »[2]، ويستشهد بعدّة نوادر، منها نادرة ابن أبي المؤمل، وصاحب التريدة البلقاء، ونورد بعضاً منها وكما يقول الجاحظ: « وصديق لنا آخر، قد ابتُلِينا بمؤاكلته، وقد كان ظنَّ أنّا قد عرفناه بالبخل على الطَّعام، وهجس ذلك في نفسه، وتوهَّم أنّا قد تذاكرنا أمره، فكان يتزَّيد في تكثير الطّعام، وفي إظهار الحرص على أن يُؤاكل حتى قال: من رفع يده قبل القوم غرّمناه ديناراً...»[3]، فعبارة الجاحظ في قوله: "و هجس ذلك في نفسه " تدل على لمحة رائعة في فنه الكاشف اللماح، فهو يرُدُّ ذلك إلى أنَّ المبالغة في القيام ببعض السلوك، سبب ونتيجة عكسية مما يُبطنه بعض النّاس فلا يمكن لنا أن نتصور الجاحظ على أنه عرَّاف، ولكنّهُ يمتلك منهجه في الملاحظة والتفكير، في ردّ المظاهر إلى داوفعها.

ولا ننسى خصيصة أخرى للجاحظ حيث إنّه يجمع أنواعاً من الثنائيات أو التناقضات، ومن النّوادر التي نستشهد بها، نادرة عبد الله بن كاسب الذي يُجري الجاحظ على لسانه الجدل بين البخل والكرم ، وتفضِيله للأول على الثاني وذلك عندما سأله عما إذا كان يرضَى أن يُقال له بخيل فأجاب بالإثبات وعند تعليله لهذا القبول: «...قال: وفي قولهم بخيلٌ تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي إخبارٌ عن خروج المال عن ملكه، واسم بخيل؛ اسم فيه حفظ وذم، واسم السّخي؛ اسم فيه تضييع وحمد، والمال زاهرٌ نافعٌ مكرم لأهله مُعِزٌ، والحمد ريح وسُخريّة، واستماعك له ضُعف وفُسولة

[1]- الجاحظ، عمرو بن بحر، مصدر سابق، ص:58.

[2]- حسين مروة، تراثنا...كيف نعرفه، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان،ط2 ،1986،ص:173.

[3]- الجاحظ، مصدر سابق، ص:55.

وما أقل غناء الحمد –والله – عنه، إذا جاع بطنه، وعَرى جلده وضَاع عِياله، وشَمت به من كان يَحسِده .»[1].

2– تكوين النصوص:

هذا الجانب يتعلقُ بالمرسل وما يصدر عنه من ملفوظات بوصفها تعبيراً عن ذات إنسانيَّة لها إدراكها وأحاسيسها النّفسيّة الكامنة في ذاته، وعلى الدّارس استكشافها من السَّياق النَّصيَّ النَّفسيَّ له [2]، ولو نظرنا إلى النّص من منطلق هذا التَّصوُّر، فسنجد أن كثيرًا من المؤشرات النَّفعية التَّداوليَّة ذات الصيغة النّفسيّة تتحكم في سبْر دينامية العمل الإبداعيّ في عمومه؛ كونه ممزوجاً بنفسيَّة الأديب قبل أن يخرج إلى الواقع، ويتلقاهُ الجمهور، ويطلَّع على ما بمكامنها من الطاقات النفسيَّة.

ويتميزُ الجاحظ بكونه أديباً عالماً بطبائع النفوس، فعندما يتحدث عن بخلائِه لا يقف عند الوصف الحسيَّ لهم، إنَّما يحاول الولوج إلى نفسيّاتهم، وإبراز ما بداخلها؛ ليجعلهم؛ أضحوكة المتلقي وله اهتمام خاص بالمتلقي أيضاً، ملِمٌ بكيفية تلقيه للأدب، وهذا ما نجده مبثوثا في تصانيفه العديدة فها هو يتأثر ويتمايل مع ما يقدم إليه من الأخبار والنّوادر، فيقدره قدره، تماشياً مع حالته وتوقعاته وبعد أن أخذنا الجوانب النّفسيّة لبعض الشخصيّات المتندّر بها عند الجاحظ، كان لابد لكي تكتمل الصورة أن نعالج الجوانب النّفسيّة عند الجاحظ من خلال كتاب البخلاء، والسؤال الذي يتبادر إلى الذّهن عند الوهلة الأولى هو: هل كان الجاحظ بخيلاً ؟ فهو من جهة يُورد النَّوادر عن البخلاء ويتيح لقارئه الضَّحك حد القهقهة، وهو من جهة أخرى يُلقَّن بخلائه الحجّة تلو الحجّة بما يُحبب أحياناً البخل إلى النفّس حيث الاقتصاد في النفقة وحسن التدبير في المال، وهو بهذا أشبه بمثل الدفاع و الاتهام في آن واحد. فلا تعرفُ هل هو يذم البخل أو يعتبره من المحامد الإنسانيَّة، لكن هناك من الأخبار ما يؤكد أن الجاحظ كان بخيلاً، فقد جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ما يلي: « سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول: قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد، ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ قلت مالي وله ؟ قال : إنّك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ثم لم يزل بي حتّى دخلت عليه يوماً، فقدّم إلينا طبقاً عليه رُطب

[1]– الجاحظ، مصدر سابق، ص:62.

[2]– ينظر: على آيت أوشان، السياق والنص الشعري، من البنية إلى القراءة، ص:5.

فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ومرَّ فيه إبراهيم، فأشرت إليه أن يمُسك، فرمقني الجاحظ فقال لي: دعه يا فتى، فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني فقدمت إليه الرُطب فامتنع، فحلفت عليه ،فأبى إلا أن يَبرَّ قسمي بثلاثمائة رطبة. »[1].

ويُستفاد من هذا الخبر أنَّ الجاحظ أحصى على ضيفه حبّات التَّمر التي أكلها، مما يعني قيمتها الكبيرة لديه، كما يُستفاد أن صاحب الخبر قد أمسك عن الأكل بعد أن تناول ثلاث رطبات فقط، لمعرفته المسبقة بجبلَّة الجاحظ؛ وهي البخل، إضافة إلى ذلك يمكن للمتلقي أن يلاحظ أن كتاب البخلاء في رسالتي كل من أبي العاص بن عبد الوهاب في ذم البخل، وابن التوأم في مدح البخل وموقف الجاحظ المؤيد لابن التوأم، من خلال ذلك الإسهاب في الشرح والتفصيل في الأدلة والإكثار من الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الحكماء.

أمَّا عن الجري وراء المصلحة الخاصة، عند الجاحظ، الذي يمكننا تسميته بأخلاق المنفعة فـ: « يبدو أنَّ الجاحظ قد نظر إلى أخلاق المنفعة على أنَّها نابية عن الذوق والعرف والدارج والمألوف في العقليّة العربيّة خاصة والشرقيّة أو الإسلاميّة عامة، ولذلك كانت نظرته الناقدة والتهكميَّة إلى هذا الانحراف عن العادات الشائعة والأعراف القائمة في المجتمع العربي.»[2]، وذلك في سوقِ نماذج متعددة من أقوال وسلوكات وأعمال البخلاء كقول قائلهم؛ ابن التوأم بأن الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى العالم. أو كالذي يمتنع عن غسل ثيابه توفيراً للماء والصابون، وما يصيب جاريته من التعب والجوع المؤدي إلى تناول الطعام. أو الذي حفر حوضاً لتجميع ماء وضوئه ليسقيه حيواناته[3] وهكذا ينقد الجاحظ بخلائه.

ولا نستطيع أن نقول عن بخلائه إنهم فهموا المسألة فهماً خاطئًا، بقدر ما يدل على نوع من الخصام بين شدة ذكائهم، و بخلهم في المجال المادي من حياتهم كما يُلمح الجاحظ في مقدمة كتاب البخلاء، عندما تساءل على لسان القارئ: « ما الذي خَبَّل عُقولهم وأفسد أذهانهم وأغشى تلك

[1]- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد وذيله المستفاد، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج2، ص:298.

[2]- عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، اتحاد كتاب العرب، دمشق ، سوريا، دط،2005،ص:142.

[3]- الجاحظ، مصدر سابق، ص: 29-140-170.

الأبصار، ونقض ذلك الاعتدال.... »[1]، فإنَّهم لم يستطيعوا أن يعتدلوا بين وفرة المال وإنفاقه مع أنَّ كثيراً منهم يوصفون بأنَّهم أصحاب العقول من أهل الكلام والحجاج، فسلوكاتهم مغايرة لمستواهم العقلي فيما يخص المال واكتنازه. وهنا من واجب البحث والأمانة أن نربط ذلك بما لاحظه علي بوملحم من: « أن الجاحظ كان نفعيّاً في حياته؛ تقَّرب من أولى الأمر والجاه و أهداهم كتبه لينال رضاهم وجوائزهم، كما كان من طلاب اللَّذة يبحث عنها ويقتنصها لم يزهد في شيء من أطايب الطّعام والشَّراب... »[2]، فهذا يمكن أن يظهر لنا جانباً من الجوانب النَّفسيَّة للجاحظ – إن صح هذا التصور– يبين سبب تحامله على بخلائه، الذي يكون للتَّستُّر على ما هو يتحلّى به ومحاولة جعلهم كبش فداء لهذه المسألة.

لكن من جهة أُخرى قد يبدو رأيه مع بخلائه ليس بصدد التَّجني عليهم، وإنما يتحدث عنهم بروح أدبيَّة فكاهيَّة مرحة، وعندما يشعر بأنّه قد يصل به القول إلى نوع من التَّجاوز، يلجأ إلى عدم ذكر الأسماء، إكراماً لهم أو خوفاً منهم في بعض الأحيان، كما يذكر ذلك في المقدمة.

وقد نرى في أكثر من مكان يمدح جانباً من أخلاقهم إلى جانب بخلهم كقوله في المدائني: « وكان شديد العقل، شديد العارضة، حاضر الحجَّة بعيد الرُّؤية. »[3].

وإنَّما همَّتهُ كشف المتناقضات عند البخلاء بروح فكاهيَّة مقبولة عند أكثرهم؛ فهو الأديب الفكه المرح ذو مكانةٍ عند كثير منهم، وقد ترى من بينهم من يقبل بإطلاق كلمة البخيل عليه كالحُزامي لأنَّها تدلّ على أنّ صاحبها ذو مال[4]، إذا صحّ الخبر فعلاً.

ويشير نوري جعفر إلى أنَّ: « الجاحظ في أسلوبه يجنح نحو السُّخرية والتَّهكم والازدراء ويتّصف بالمرح وروح الدُّعابة وبالقدرة العجيبة على الاحتجاج للشيء ونقيضه.»[5]، كمزح الجدَّ بالهزل والمبالغة والتَّهويل والقدرة على تصغير الشيء العظيم و تعظيم الشيء الصَّغير أيضاً، وقد يكون ذلك لسبب كونه مُعتزليّاً ومذهب المعتزلة يتسم بالعقلانية، والقدرة على الكلام والجدل العقليَّ، وقد نستطيع أن

---

[1]– الجاحظ، مصدر سابق، ص:2.

[2]– علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1،1994،ص:396.

[3]– الجاحظ، المصدر نفسه، ص:137.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، ص:62.

[5]– نوري جعفر، الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، دار الآفاق، بيروت لبنان، دط، دت، ص:11.

نرجعه أيضاً إلى التركيبَّة النفسيَّة المتناقضة له، فقد عاش أنواعاً من المتناقضات فيما يتعلَّق بحياته الشخصيَّة أو تركيبّة المجتمع المتنوع الذي عاش فيه، وقد أصبح الجاحظ الفقير بحال من الرَّخاء والتَّرف بعد أن كان فقيراً معدماً، وقد سُئل مرَّة عن حاله فأجاب: « ...حالي أنَّ الوزير يتكلم برأي، ويُنفذ أمري، و يؤثر الخليفة إيصالاتٍ ليّ، وآكل من لحم الطَّير أسمنها، وألبس من الثيّاب أفخرها، وأجلس على ألين الطَّبريَّ، وأتكئ على الرَّيش.»[1]، لذا نرى أنَّ أدب الجاحظ كان انعكاساً للجوانب السيكولوجيَّة والاجتماعيّة، التي طبعت نفسيَّة الجاحظ بهذه الدّعابة اللّاذعة، والنّادرة الهادفة التي كان يرمي من خلالها إصلاح المجتمع بتشخيصِ عُيوبه في صورة فنيّة إبداعيّة راقية.

ب_ النص والسياق الاجتماعي:

إنَّهُ عن طَريقِ التَّعبيرِ بالنُّصوص في سياقٍ معينٍ، نُنجز أَفعالاً لسانيَّةً، فأفعالُ اللَّسانِ هي أفعال اجتماعية وهي منتجة في سيرورات التّفاعل التّواصليّ، ولقد يجد هذا التَّفاعل مكاناً له في المواقف الاجتماعية المختلفة، بهذه الصُّورة يمكن أن نفسَّر مجموع الملفوظات اللّغوية الواردة في النّص بوصفها متتالية من الأفعال الكلامية الاجتماعية محقّقة بواسطة الفعل الخطابيّ الكلاميّ، كالأوامر والوُعود والتّأكيدات والتّنبيهات والطَّلبات والتَّحريضات...[2]، إنّها سلسلة من الممارسات والأبنية الاجتماعية التَّواصليَّة التّفاعليَّة اليوميَّة، فهذه المقولات الأدائية تعبر عن سلوكٍ لغويٍّ إجتماعيٍّ يوميٍّ يمارسه كلُّ فردٍ ضمن حركته التَّفاعليَّة التَّواصليّة في جماعته الخطابيّة، ينجز ويغيُّر بها العالم من حوله ويحقق بها مقاصده وحاجاته، ثم إنَّ هؤلاء المتكلّمين لهم صيغتهم ونمطهم الاجتماعي، وآمالهم وطموحاتهم وطريقة عيشهم، وهو ما يظهر في شكل تفاعلهم، ويستكشف عن طريق فعل التَّلفظِ[3]، على هذا الأساس يمكن النّظر إلى المحادثة باعتبارها نمطاً من أنماط التَّفاوض الاجتماعي اليومي، وهي تتعدد بحسب المحددات التي تضبط خطابه وطبيعتهُ ومستواهُ ونهجهُ وجملة الآليات الخطابيّة التي تجمع تحت عنوانٍ واحدٍ، هو" إستراتيجيات الخطاب ".

إنَّ نَصَّ البخلاء تعبير عن بنية إجتماعيَّة مؤسسة في زمانٍ ومكانٍ معينّين، وتأسيسٌ لنمطٍ من التَّفاعل بين الأفراد يولَّد فعل القراءة. و له القدرة على التجدَّد والبعث، فيتجدد له سياق مقابل آخر

[1]- نوري جعفر، مرجع سابق، ص:19.

[2]- ينظر: آيت أوشان، مرجع سابق، ص:87.

[3]- ينظر: إبراهيم براهيمي ، مرجع سابق، ص:238.

يمنحه المعايشة أو استحضار الحالة السائدة يومئذٍ خاصَّة وأنّ القارئ الضمنيَّ (الذي ينتمي إلى حضارة و ثقافة و لغة واحدة مع مضمون ومعطى النّص) وهذا ما قد يحدث التَّطابق الاجتماعي في الفعل والممارسة الحياتيَّة، وبهذا يمكن أن يتأسّس التَّواصل والتَّفاعل النَّصيُّ.

ونجد أيضًا نص البخلاء دو طبيعة عامة ومتعددة من جانب إطار العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أطرّاف الكلام، ودو صبغة مؤسساتيّة إذا كان المحيط الذي يجمع المتُخاطبين هم من أصعدةٍ متعددةٍ (المنزل – المسجد–السُّوق...إلخ) ويتفاوتون من حيث الوظائف الاجتماعية المتعددة (أب – أم – رئيس – مرؤوس – عبد – أمة...إلخ) ولمعرفة السَّياق الاجتماعي بصورة دقيقة لابد من سَبْرَ أغوار التاريخ الاجتماعي لبيئة البصرة، التي عاش فيها الجاحظ من خلال كتاب البخلاء على وجه التحديد، فلم يعش بخلاء الجاحظ في نوادرهم ومعها، بعيدين عن فئات المجتمع الأخرى التي كان لها الأثرُ البارز في التَّفاعل الاجتماعي للملفوظات الجاحظيَّة المروية على ألسنة بخلائه ومن هذه الفئات نجد:

1–العيَّابون:

والعيّابون هم الذين يتناولون عيوب النَّاس وينشرونها و: « قد ظهرت إلى جانب بيئة البخلاء بيئة واضحة الملامح أساسها العيَّابة »[1]، ويتوفر ذلك في كتاب البخلاء فيما جاء في رسالة سهل بن هارون، فيما يَردُّ به على أبناء عمومته عندما عابوا مذهبه في الاقتصاد أو البخل، مردداً كلمة (عبتُموني)، في أكثر من فقرة من فقرات رسالته، ويورد الجاحظ في كتاب البخلاء أسماء وأقوال أكثر الذّين يعيبون النَّاس من أمثال: أبو الفاتك، والجارود بن أبي سبرة والجمَّاز وأشهرهم تمام بن جعفر[2]، وغيرهم من ذلك ما يقوله تمام بن جعفر عندما شكا له أحدهم عدم القُدرة على المشي: « قال له: كيف تمشي ؟ وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمّالاً، وهل ينطلق النّاس إلا من خفة الأكل؟.»[3]، ويُعّد الجاحظ من أكبر العيّابين في عصره، لما أورده من عيوب الناس ونشرها في كتابه البخلاء.

---

[1]– هاني العمد، صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، ص:78.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص:79–83.

[3]– الجاحظ، مصدر سابق، ص:106.

وتعدُّ هذه الفئة من المجتمع العباسيّ جديرةٌ بالاهتمام، نسلّط الضوء عليها لمعرفة طبيعة الصّراع الدائر بين البخيل وغيره، أو بين البخيل والأكلة، وكيفية التّعامل فيما بينهم ونظرة المجتمع إلى كُلّ منهم، وقد أجلى الجاحظ عن وجهة نظر كلَّ من الطَّرفين وتركهُما يبديان آرائهما بكل حريَّة وسعة دون الانحيازِ لطرف دون الآخر، ويسمح لهما بأن يدافعا عن آرائهما، ولا نذكر هنا مصطلح " البيئة " لندل على تميز اجتماعي واضح، كأن تكون لنا بيئة البخلاء وأخرى للعيّابين وهذا، ولكن حيثما يوجد بخيل أو أكول فقد يوجد عيّابٌ أو ساخرٌ منهم.

2- المُكّدُونْ:

وهم الَّذين احترفوا الاستجداء وسؤال النَّاس عن طريق الاحتيال وأبرز شخصيّاتهم: خالد بن يزيد مولى المهالبة؛ وهو المعروف بخالويه المكدَّيّ الذي ترأس هذه الطائفة، التي جمعت في طيَّاتها أنواعاً من المحتالين الذين عرفوا بأسماء حيلهم فمنهم: المخطراني، والكاغني والقرسي والمشعَّتُ والعوَّاء والإسْطيلي والمسْتعرِضُ....إلخ، ويُفْردُ لهم الجاحظ متناً تفسيريّاً توضيحيّاً لأساليبهم في الكُدية وقد كان لخالد بن يزيد غلمان كأبي سليمان الأعور وأبو سعيد المدائني اللذان لم يفصّل الجاحظ فيهما القول ونجد خالد بن يزيد يُوصي ولده بالمحافظةِ على المال الذي جناهُ من هذه الحرفة، لأنه لم يحصل عليه بِسهولة ويَعدُّ واثقاً بقوله: « أنا لو ذهبَ مالي لجلستُ قاصّاً، أو طفتُ في الآفاق كما كنت مُكدياً، اللحية وافرة بيضاء والحلق جهير طلٌّ، والسَّمتُ حسن والقبول عليّ واقعٌ....»[1].

ويظهرُ من كلامه هذا أنَّ الكُدية تكون في الآفاق وليست في مدينة بعينها، وهناك شيء آخر يجب أن نتنبه إليه، هو أنَّ القصَّ كان يُتخذُ وسيلة لجلب المال وربحِهِ، إن لم يكن هذا الكلام تعريضاً للقصَّاصين من قبل الجاحظ، الذي لا يبدو أنَّه ينظر إليهم بإيجابيّةٍ.

3- الرُّواة والقُّصاص:

وكان من مهامَّ أفرادها نقل الأخبار والأنساب والسَّير والقصص والشِّعر واللُّغة وغيرها، ومن الكبار الذين اعتمد عليهم الجاحظ من الرُّواة: الأصمعيّ وأبو زيدٍ وأبو عبيدةٍ وغيرهم ومن القُصَّاص عامر بن قيس وبكر ابن عبد الله المزنُّي المدنيُّ الذي كان لصيقاً بالبصريّين، ويزيد بن أبان، الذَّي كان فارسيّاً وأبو كعب وعبد الأعلى ومطرف ابن الشُّخَير، وقد عدّهم الجاحظ من صحبه في

[1]- الجاحظ، مصدر سابق، ص:47.

قوله: « هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا...»[1]، وقد كانوا مصدراً غزيراً ومؤثراً في كتب الجاحظ عُموماً، وفي كتاب البخلاء على وجه الخصوص.

والذي نخلصُ إليه في هذا الجانب أنَّ حوارات نوادر الجاحظ تُعدُ نماذج خطابيّة متنوعةٍ تصورُ لنا تصويراً دقيقاً " دياليكتيك " البُنى الخطابيَّة والممارسات الاجتماعية بتعبير نورمان فيركلو[2].

فالعلاقةُ بين الخطاب وعناصر التَّنظيمِ الاجتماعيّ علاقة تغييريَّة فعّالة، قد أدرك الجاحظ بعض سنَنها وقوانِينها من خلال ممارسته ومعايشته لمختلف البيئات الاجتماعية، ولقد حاول الجاحظ أن يجعل من اللغة نشاطاً اجتماعيّاً تفاعليّاً بتجسيده لأنماط معينة من الخطاب، بغض النَّظر عن حيَّز الزمانيَ والمكانيّ الذي تدور فيه المحادثة وسردياتهم، فمادام لا يستطيع الجهر بفئة الأسخياء.

ج ـ النّص والسياق الثّقافي:

يبدو التّحقق من دراسة السِّياق النَّفسي الاجتماعي والسَّياق الاجتماعي أن قراءة النَّص مقاميّاً تقتضي النَّظر إلى الملفوظاتِ بوصفها مكونات نفسيَّةٍ ذهنيَّةٍ مُحولَّة ومَبنيَّة لُغويّاً تمارس تأثيرها التّواصلي التَّفاعلي مع المتلقي، وأنَّ النَّص في أصلِ تركيبه وبنائه أفعالٌ اجتماعية ثقافيَّةٌ تتجلى بالملفوظاتِ المنطوقةِ من خلال المتخاطب في السَّياق النصي، وقد تبين من خلال الأمثلة المعطاة عن النَّصَّ أنها تعمل بوصفها أفعالاً كلاميةً تُنجزُ تغيّراً في مختلف الأوضاع الاجتماعية وأنَّ بعض هذه الأوضاع محددة تاريخيّاً وثقافيّاً من المكونات المهيمنة في تلوين النَّصَّ بصيغةٍ ثقافيَّة مميزةٍ تُغري الدَّارس الأثنوغرافي المهتم بعادات الأفراد والأمم وقيَّمهم الثقافية والتَّواصليَّة الرائجة والساكنة ، الثابتة والمتغيرة[3]، ويبدو الجاحظ مُهتمّاً بفئات المجتمع الهامشيّة، ذلك من أجل إظهار تناقضات مفاهيم المجتمع الثقافيَّة، فالمجتمع حسب الجاحظ ليس بنية ثقافية متجانسة؛ بل هو بنية تقوم على مختلف الرؤى، وتمتاز باستيعاب التناقض، لذلك راح الجاحظ يفتش في جانب الحياة المعتم ويستخرج لنا هذا التَّفاعل الاجتماعي بقسوته في صورة هزليَّة متقصِّداً إلى توضيح التَّناقضاتِ الاجتماعية القائمة، كما

---

[1]- هاني العمد، مرجع سابق، ص:147 – 150.

[2]- نورمان فيركلو، الخطاب بوصفه ممارسة إجتماعية، تر: رشاد عبد القادر، الكرمل (مجلة فصلية ثقافية)، ع:04، مؤسسة الكرمل الثقافية، بيروت، لبنان، صيف 2000، ص:170.

[3]- ينظر: إبراهيم براهيمي، مرجع سابق، ص:246.

أنَّ الانحياز للهامشِ هو خروج من دائرة المتن المتخم بالتَّعالي الزائف، والبيان الفاسد الذي يُثبت صورةً نمطيةً واحدة لمجتمع متعددٍ ومختلف[1].

وخُروج الجاحظ المقاصدي يتضمَّنُ موقفاً من المؤسسة الرسميَّة التي تنظَم مفاهيمها لتكون دالَّة على القوَّة والتفَّرد، ودخولاً في المؤسسة الهامشية التي تعيش صراعاً عنيفاً مع الخطاب الرسّميَّ، فعندما يتحدث الجاحظ عن البُخلاء وسردياتهم فإن حديثه يستبطن سُخريَّة من الأسخياء وسردياتهم فمادام لا يستطيع الجهر بفئة الأسخياء وسردياتهم حفاظاً على مصالحه المتعددة أولاً وخشيةً من سلطتهم ثانياً فإنه يتعرض للبُخلاء ويتخذ منهم مطيّة يؤسس عيوبها خطابه في نقد الأسخياء ومفاهيمهم الثقافية، فلقد كان الجاحظ يسعى إلى إظهار تناقض الهُويَّة العربيَّة الثقافيَّة التي تعتدُّ بالكرم والكُرماء وتدين البخل والبخلاء دون الالتفات إلى ظروف الكرماء والبخلاء المعيشيَّة ودوافعهم الثّقافيّة.

ويستعينُ الجاحظُ على مشروعُ كتابه الهامش بالسُّخرية، التي تضمن له عدم الوقوع في محاذير الأمور وتُجنُّبه المواجهة الثّقافيَّة والمسؤوليَّة الأخلاقيَّة، لكنَّ هذه السُّخرية سرعان ما ينكشفُ أمرها عندما يُماط لثامُها، الذي يتَّضحُ من خلال الشَّواهد التي كان الجاحظ يستنجدُ بها في تدعيم مواقفه إضافة إلى توكيده ضرورة استثمار الحصيلة المعرفيَّة عند القراءة فخطاب الجاحظ خطاب مبتورٌ وناقصٌ، ودور القارئ تتميم هذا النُّقص واتساع التَّواصل مع الخطاب. يقول الجاحظ: « وليس يمنعني من تفسير كلُّ ما يمُر إلّاَ اتّكالي على معرفتك، وليس هذا الكتاب، إلاَّ لمن روى الشَّعر وذهب مذاهب القوم، أو يكون قد شدا منه شدواً حسناً. »[2].

وهناك من حاول أن يرى في كتاب البخلاء قواعد أليجوريَّة*، فقال بأنه: « لن نستطيع أن نبحث عن صورة المجتمع العباسيّ في ذلك الوقت دون أن نأخذ في الحُسبان ذلك البعد

[1]- ينظر: عبد الكريم الجويطي، بخلاء الجاحظ ونهاية التاريخ، مجلة فصول، ع:64، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر،2004، ص: 350-351.

[2]- الجاحظ، مصدر سابق، ص:243.

*هي قواعد إشارية سيميائية تنتظم لتعطي معنى متكامل ومتجانس.

الإشاريّ. »[1]، الذي يهدف إليه الجاحظ في كتابه، وله دور رئيس في إيديولوجيَّة الكتاب وخطابه الثَّقافيّ، وهو استرضاء العباسيّين بالانتقاص من الأمويين وانتقاد الشعوبيَّين، والتعويل في ذلك على ما ساد المجتمع من روح الطَّمع والبخل والاكتناز، وانهيار قيم السَّماحة والتَّكافل الاجتماعي وتفشي الطَّبقيَّة، إضافة إلى النيَّل من بعض خصوم الجاحظ كالكندي وثمامة.

ونجد البعد الأليجوري متحقِّقاً في مقدمة البخلاء، في أنَّه يريد الوصول إلى هدف من خلال قصص البخلاء، فيقول على لسان سائل مفترض :« فبيّن لي ما الشيء الذّي خبَّل عقولهم وأفسد أذهانهم وأغشى تلك الأبصار ونقض ذلك الاعتدال.»[2]، ويقول مجيباً: « فأمّا ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء، فسأوجدك ذلك في قصصهم إن شاء الله تعالى مفصّلاً في احتجاجهم مُجملاً »[3]، إذ يجعل قصصه وسيلة للوصول إلى الهدف المنشود، وهو الإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي وجّهت إليه من سائل؛ بالقصص. وهذا لا يعني أنه يُريد الوصول إلى النَّوادر والاحتجاجات فقط بل يعني أن قصصه تحمل دلالاتٍ مختلفة أيضا.

يقول الجاحظ في قصة ديكة مرو مثلا: «لم أر الديك في بلد قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدّام الدّجاجة، إلّا ديكة مرو. فإني رأيت ديكة مرو تسلب ما في منقارها من الحب. »[4]، هذه هي صورة ديكة مرو، تختلف عن الديك الذي يضرب به المثل في السخاء، فعلى العكسِ من ذلك أصبحت يُضرب بها المثل في البخل، وهذه الحقيقةُ ليس ما يقصد بالنّادرة، وهناك نادرة أخرى تكمل هذه النَّادرة فيقول راويها: « كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي صغير له يلعب بين يديه، فقلت له إمَّا عابثًا وإمَّا ممتحناً: أطعمني من خبزكم، قال: لا تريده هو مرٌّ فقلت: فاسقني من مائكم، قال: لا تريده فهو مالح. قلت هات لي من كذا وكذا قال: لا تريده فهو كذا وكذا (....) فضحك أبوه وقال: ما ذنبنا، هذا من علّمه ما تسمع ؟ »[5].

---

[1]- علاء الدين بن رمضان السيد، ، صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء للجاحظ، دار المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2000، ص:33.

[2]- الجاحظ، مصدر سابق، ص :02.

[3]- المصدر نفسه، ص:05.

[4]- المصدر نفسه، ص:18.

[5]- المصدر نفسه، ص:19.

يعني أنَّ البخل طبعٌ فيهم وفي أعراقهم ووطنيَّتهم، ولقد لجأ الجاحظ إلى نوادر كثيرة على هذه الشَّاكلة وهي تحمل دلالاتٍ حقيقيّةٍ وأخرى مجازيَّة، ولكنَّ المقصد واحد في ظاهره، وهو رسوخ طبع البخل، ومقاصد أخرى بعيدة كانتقاد الشعوبيين (الخرسانية وأهل مرو). ولو تَتبعنَا مُجمَل النوادر لوجدنا أنها تَعبيرٌ عن نمَط حياتيٍّ سائدٍ في تواصلات اجتماعية عبر الملفوظات اللغويّة بين الفاعلين في التَّفاعل الإجتماعيّ الذي يمثل في حقيقته معطًى ثقافياً. كما يمكننا اعتبار النَّصِّ وثيقةً هامَّةً لرصد مكونات الواقع الثقافيّ، كون النص يزخرُ بقيمٍ وعادات ثقافيَّة زمن إنتاج الخطاب؛ من ذلك الملبس والمأكل والسُّلوك والتّفكير...إلخ. فقد كان المرسل قريباً من واقع النَّاس ومعاشهم في دقّة الوصف وخصوبة الخيال وتنوُّع المعارف وعمقها ودقّة إدراك الجاحظ لكوامن النفوس، وهذه الميزات الجاحظية ترتبط بالشَّكل الفنيَّ الذي لم يكن الجاحظ يهتم به وحده، فخطابه ينتظم في مضامين ودلالاتٍ ومعانٍ متنوعةٍ هي التي تُظهر مواقف الجاحظ الثقافيَّة، أمَّا الملامح الأسلوبيّة فتُظهر براعته الفنيَّة.

و يمكننا أيضاً النَّظرُ إلى النَّصِ بوصفهِ سجلاً كلاميّاً تواصليّاً يوميّاً، لوضعيات ثقافيَّة تفاعليَّة متعددة تُجسدُ ثقافةَ بيئة المرسل، وتصور وظائف تفاعليَّة تواصليَّة بين المتخاطبين رغم اختلاف رؤاهم الثقافيَّة، وبذلك فهيَ تعبيرٌ عن سِلِسلة خطابيَّة ثقافيَّة سائدة في واقعهم، ومن ثمة فهي تمثيل لآليات وقواعد تخاطبيَّة (استراتيجيات الخطاب) يمكن أن يُستَشف من خلالها هذا التَفاعلِ الثقافيّ في مقاماتِ التواصل الحَقيقية بين المتخاطبين.

المبحث الثاني

المبحث الثاني : إستراتيجيات الخطاب في النادرة العربية

المطلب الأول: إستراتيجيات الخطاب: المفهوم والمحددات ومعايير التصنيف

أ_ مفهوم استراتيجيات الخطاب:

من الواضحِ جدّاً أن هذا المصطلح يتكونُ من شقَّينِ يتميزُ كل منهما بمفهومٍ معينٍ، لذا فإنَّ في تحديدنا لهذا المفهومِ لابد أن نستَوضِحَ كل مصطلحٍ على حِده، فلمصطلح " الإستراتيجية " مفهوم عام، ولمصطلح الخطاب مفهوم خاص.

أ_1_ مفهوم الإستراتيجية:

وَفدت كلمةُ " الإستراتيجية " من المنظورِ اللغوي إلى العربية من اللغاتِ الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية) عبر الاقتراب اللّغوي وهي من أصولٍ يونانيةٍ "ستراتيجوس" (strategos)، وتعني: فن قيادة الجيوش، أو أنها فن قيادة الحروب[1]، وقد اِتَّسعَ هذا المصطلح في استعمالاتٍ عِدةَ ومعارف وتخصصاتٍ عديدة ، ولو حققنا في مُجمل مدلولاتِها ومعانِيها نجد أن الاستراتيجية تُركزُ في إجابتها على ثلاثة أسئلةٍ وهي:

ماذا؟ ومتى؟ وكيف؟[2]، ولذا فإن جوهرَ الإستراتيجية يقومُ على جانبين:

_ تخطيط يُنجزُ.

_ مقاصد تُتوخَى[3].

ويمكننا أيضاً تحديد الإستراتيجية بأنها: « طرقٌ محددة لتناولِ مشكلة ما أو القيامِ بمهمةٍ من المهماتِ، أو هي مجموعةٌ عمليات تهدفُ إلى بلوغ غاياتٍ معينةٍ أو هي تدابيرُ مرسومة من أجل

---

[1]- ينظر: أندري بوفر، مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية، تر: أكرم ديري و الهيثم الأيوبي ،دار الطليعة ، بيروت، لبنان، ط3، 1978، ص: 118.

[2]- علاء الدين هلال، " مفهوم استراتيجية العلوم الاجتماعية"، الفكر الاستراتيجي العربي، ع:40، دارالنهضة العربية، القاهرة، مصر، أبريل 1982، ص:75.

[3]- المرجع نفسه، ص:76.

ضبطِ معلوماتٍ محددةٍ و التحكمِ بها .»[1].

وبناءً عليه، فإنَّ الإستراتيجية تَتحقَّقُ وفقَ عمليتين:

أولهما: العمليةُ التَّخطيطيَّةُ، وهي عمليةُ ذِهنيَّةُ محضَةُ، والعملية الإنجازيَّة التي تُبلورُ العملية التَّخطيطيَّة ويُستندُ العملُ في العمليتين على الفَاعلِ الرَّئيس الذَّي يعملُ على تحليلِ السياقاتِ ويخططُ لفعلهِ ليَختارَ من الإمكانات المتعددَّة ما يحقَّق مقاصدهُ، ويضمنَ الوصول إلى أهدافهِ. فتعدَّدُ هذه الإمكانات يُعدد من الإستراتيجيَّاتِ، لذلك نظر الفيلسوفُ الفرنسيُّ " ميشال فوكو" إلى الإستراتيجيَّة بمعانٍ متعدَّدةٍ في قوله: « تُستعمَلُ كلمةُ الإستراتيجية عادةً بثلاثة معانٍ:

أولاً: للتّدليلِ على اختيار الوسَائل المستخدمةِ للوصُول إلى غاية معينةٍ؛ والمقصود بذلك هو العقلانيَّة المستخدمةُ لبلوغ هدفٍ ما.

ثانياً : للتّدليل على الطَّريقةِ التي يتصرّفُ بها أَحدُ الشُّركاء، في لُعبةٍ مُعينة، تبعاً لما يعتقد أنَّهُ سيكونُ تصرُّف الآخرين ولما يُخال أنَّ الآخرين سيتصورَّون أنَّهُ تصّرفه هو؛ باختصار، الطريقة التيُ نحاول التأثير بها على الغيرِ.

أخيراً: للتَّدليل على مُجملِ الأساليب المستخَدمةِ في مجابهةِ ما لحرمانه الخَصم من وسائلهِ القتالية وإرغَامِه على الاستسلام وعليه تتحدَّد الاستراتيجية باختيار الحلولِ الرَّابحة .»[2].

لكنَّها في مجالِ الدّراسات اللَّسانيَّة التَّداوليَّة تُعبّر عن الآليّاتِ والطَّرائق اللُّغويَّة التي يَسلُكها المتخاطبون للتَّفاعل الاجتماعيَّ وما يحكمُ الخطاب اللُّغويّ من أسبابِ التَّوفيق والنَّجاح، والتي صَارت تُعدُّ أَحد اتجاهات التَّداوليَّة[3].

[1]– عبد الرحمن العبدان و راشد الدويش، " استراتيجيات تعلم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية "، مجلة أم القرى، ع:16، منشورات جامعة أم القرى، الرياض، السعودية، 1997، ص: 323.

[2]– أوبيير دريفوس وبول رينوف، ميشال فوكو (مسيرة فلسفية، تر: جورج أبو صالح، مر: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي بيروت ، لبنان، دط، دت، ص:200.

[3]– ينظر: إبراهيم براهيمي، مرجع سابق، ص:04.

وفي المجملِ يمكنُنا اعتبار أنَّ الإستراتيجيَّة ممارسة في شكلٍ بَسِيطٍ أو معقدٍ، تسعى إلى الانتقاء والتَّخييرِ بمراعاةِ عناصر السِياق المحيط بالفاعِل الرَّئيس، مُتلمَّسةً الأصوب للوصول إلى التَّأثيرِ الأمثل وهي ضرورةٌ شاملةٌ لجميعِ ميادين الحياة ولجميع المنجزاتِ الإنسانيَّة.

ب) مفهوم الخطاب:

يُعدُّ مفهومُ الخطاب مِن المفاهيمِ الأساسيَّة في الدِّراسات اللّسانية الحديثة على اختلاف توجُّهاتِها، العربيَّة منها والغربيَّة، لذا نَقومُ بتتبعِ مفهومِ هذا المصطلح عند العربِ وعند الغربِ.

ب-1- مفهوم الخطاب عند العرب:

ورد لفظ الخطابِ في مَواضِع عدِّة من القرآن الكريم، بصيغٍ متعددةٍ منها:

صيغةُ الفعل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [سورة الفرقان: الآية 63]، وفي صيغة المصدرِ في قوله تعالى :﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ [سورة النبأ : الآية 37]. وفي قوله تعالى عن داود عليه السَّلام :﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [سورة ص: الآية 20].

وقد عَدَّ فَخرُ الدِّين الرَّازي في التَّفسير الكبيرِ بأنَّ: « فَصلَ الخطابِ عبارةٌ عن كونهِ قادراً [الإنسان] على التَّعبيرِ عن كلِّ ما يَخطُر بالبال، وما يحضرُ في الخيالِ، بحيث لا يختلطُ شيء بشيء ينفصلُ كلُّ مقامٍ عن مقامٍ. »[1]، وقد ورد بصيغةِ اسمِ المفعولِ عند النُّحاةِ للدَّلالة على من يُوجَّهُ إليهِ الخطابُ (المرسل إليه).

لَكِنَّ الاهتمامَ بمفهومِ الخطابِ يَتجلَّى أَبرز من حيثُ الدّقة عند الأصوليّينَ، فقد عَرَّفهُ الآمديُّ بأنَّه: « اللفظُ المتواضعُ عليهِ المقصودُ به إفهامُ من هو متهيئٌ لفَهمهِ .»[2]، وعَرَّفَه الإمامُ الجويني أيضاً

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، دار كنوز المعرفة ، عمان، الأردن، ط2، ج1، ص:70. نقلاً عن محمد فخرالدين الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ج26، ص:187-188.

[2]- على بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ، تح: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2،1986،ج:01، ص:136.

بقوله إنَّ :« الكلام، والخطاب، والتَّخاطب، والنُّطق، واحدةٌ في حقيقة اللُّغةِ، وهو ما يصيرُ بهِ الحيُّ متكلماً .»[1].

أمَّا من ناحيةِ صيغةِ لفظ الخطاب فهُو:« أحَدُ مصدريَّ فعل خَاطَبَ يُخاطِبُ خطابًا ومخاطبة وهُو يَدُلُّ على توجيهِ الكلامِ لمنْ يفهمُ، نقل مِنَ الدَّلالةِ على الحدث المجرَّد من الزمنِ إلى الدَّلالة على الإسمية، فأصبح في عُرف الأصوليّن يدلُّ على ما خُوطِبَ به؛ وهو الكلامُ.»[2]، ومن هذه التعَّاريف نلحظُ أنَّ مفهوم الخطابِ عند العربِ يَتركزُ على المنطوق(التَّلفظ فقط) وبذلك فإنَّهم أهملوا العلامات غير اللغوية في الخطاب.

ب_2_ مفهوم الخطاب عند الغرب:

تَتَعدَّدُ مفهومَاتُ الخطابِ عند الغربيين وفقَ تعدُّدِ المناهِج والمدارِس اللَّسانيَّة و يُشارُ إلى أنَّ اللَّسانيَّ زليج سبتاي هاريس أَوّلُ من اِستعملَ مفهوم الخطابِ في تجاوزهِ لمفهومِ الجُملة في التَّحليل اللَّسانيَّ[3]، ويُمكننا أن نُركِّزهُ في مفهومين اثنين هما:

الأول: أنَّهُ ذلك الملفوظُ الموجّهُ إلى الغير لإفهامهِ قصداً معينّاً.

الثاني: الشَّكلُ اللُّغويُّ الذي يتجاوزُ الجملة.

ففي الأَوَّل نَخْتارُ مَفهومَ اميل بنفنست الذي يَنظُر إلى الخطاب فيما يميِّزه داخل إطار السَّياق الاجتماعي بغضِ النَّظرِ عن البنية اللُّغويَّة لأنَّه: « الملفوظ منظوراً إليهِ من وجهة آليّاتِ وعمليّات اشتغاله في التَّواصل، والمقصودُ بذلك الفعل الحيويَّ لإنتاجِ ملفوظٍ ما بواسطة مُتكلّمٍ مُعيَّن في مقامٍ معين، وهذا الفعلُ هو عملية التَّلفُّظِ. وبمعنى آخر يحُدِّدُ اميل بنفنست الخطاب بمعناهُ الأكثر اتَّساعاً بأنَّه كلُّ تلَّفظٍ يفترض متكلّماً ومستمعاً وعند الأوَّل هدفُ التأثيرِ على الثاني بطريقةٍ ما.»[4].

أمَّا في المفهوم الثَّاني بوصفهِ ما يتجاوزُ الجُملة، فهو مُتوزّعٌ على مناهِج لسانيَّة ثلاثة:

---

[1]- الجويني، الكافية في الجدل، تح: فوقية حسين محمد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، د ط، 1979، ص:47.

[2]- إدريس حمادي، المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1،1998، ص:17.

[3]- ينظر: بريجيته بارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط2، 2010،ص: 270.

[4]- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي ، الدار البيضاء، المغرب ، ط3،1997، ص:19.

المنهجُ الشّكليُّ: بِوصفِ الخطاب تلك الوحدةَ الأكبرُ من الجُملة وهو يتجلَّى في ممارساتِ اللَّسانيَّاتِ النَّصيّة المهتمَّة بالنَّظر إلى الخطابات من وِجهةِ نظر تماسُكها (الاتسّاق والانسجامُ).

الاتجاهُ الوظيفيُّ: الذَّي يُعَرَّفُ الخطابَ بوصفهِ استعمال اللُّغة، و هو دعوةٌ إلى ضرورةِ الاعتناء بعناصرِ الخطاب، توظيفاً وتأويلاً.

أمَّا التَّعريفُ الثَّالثُ فهُو تعريفُ الخطابِ بوصفهِ ملفوظٌ ويمثلُ هذا التقَّاطعِ الحادثِ بين المنهجَينِ السَّابقين؛ بين البِنيَة والوظِيفَة فالخطاب هنا مجموعةٌ من الوحداتِ التَّلفُّظيَّة السَّياقيَّة أو: «أنَّ الخطاب مُكَوّن من جُملٍ سياقيةٍ.»[1].

وهذا الإختلافُ في الدَّراسات اللَّسانيَّة الغربيَّة أحدثَ تبايناً في السَّاحة اللَّسانية العربيَّة مما أَوجَدَ خلطاً بين مَفهُومَيْ الخطاب والنص: « والحقُّ أنَّ بينهُما اختلاف؛ فالنَّصُّ في هذه الدَّراساتِ، هو مُجملُ القوالِبِ الشَّكليَّة: النَّحويَّة والصَّرفيَّة والصَّوتيَّة بغضِ النَّظر عمَّا يَكْتنِفُه من ظروفٍ أو يَتضمَّنهُ من مقاصد .»[2].

ولمَّا كانت دراستُنا في الخطابِ اللُّغوي البحث فإنَّ: «حدَّ الخِطاب أتَهُ كل منطوقٍ به مُوجَّه إلى الغير بِغرضِ إفهامِه مقصوداً مخصوصاً. »[3]، مع ضَرورةِ التَّركيز على المقاصدِ الكامنة وراء الملفوظاتِ في مقاماتِ التَّواصل الحياتيَّة وآليَّات اشتِغالها وطرائق انتقائيتها.

ج) مفهوم استراتيجيات الخطاب :

إنَّ استعمال صيغة الجمعِ لهذا المصطلح " استراتيجيات الخطاب " تَفرضُه تَعدّدُ إملاءاتِ المواقف الاجتماعيَّة ومُعطياتِها وخصائصها، فليس هناك إستراتيجيَّة واحدةَ ثابتة صالحة لكلِّ المقاماتِ والمواقفِ، فلِكُلُّ موقفٍ خَطابيٍّ إستراتيجيَّة خطابيَّة مُعينة تنسجِم معه، لذا فإنَّ الاختيار الخطابيَّ يقومُ على آليّاتٍ تعمل على تنظيمهِ: «و يَتجلّى هذا التَّنظيمُ عند التَّلفُّظ بالخطابِ في ما يُسمى بإستراتيجيَّاتِ الخطاب وهذا معناهُ أن الخطاب المنجز يكونُ خطاباً مخططاً له، بصفةٍ مستمَّرة،

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص:75.

[2]– المرجع نفسه، ص:76.

[3]– طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب،ط1،1998،ص: 215.

ومن هُنا يَتحتَّمُ على المتكلِّم أن يَختارَ الإستراتيجيَّة المناسبةَ، التي تستطيعُ أن تُعبرَّ عن قصده وتُحقق هدفه بأفضلِ حالةٍ .»[1].

ويُعَرِّفُها عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ بقوله: «عبارةٌ عن المسلكِ المناسب الذي يَتَّخِذُهُ المرسل للتَّلفُّظِ بخطابهِ من أَجلِ تنفيذ إرادته والتّعبير عن مَقاصِده التي تؤدي لتحقيقِ هدفه من خلال استعمال العلامات اللُّغويَّة وغير اللُّغويَّة وفقاً لما يَقتضِيه سياقُ التَّلفُّظِ بعناصره المتنوعة ويستحِسنُه المرسلُ...»[2].

ومُجمَلُ القول أَنَّ إستراتيجيَّة الخطاب هي مجموعةٌ من الآليَّاتِ والطرائقِ والأَساليبِ، التي يَعتَمِدُ عليها المخاطبُ في الوصولِ إلى أَغراضهِ، مكسباً لخطابه أقصى مدى من النَّجاعةِ، لاكتسابهِ فاعليَّة تواصليَّة ناجحة، وعليه فإنِّ إستراتيجيَّة الخطاب فنٌّ وعلمٌ يبحثانِ في وعن جملةِ القواعد والآليَّات اللُّغوية والبَلاغيَّةِ الإبلاغيَّة والعلامات الإشارية غير اللُّغوية – المصاحبة لهما – والتي تَضبِطُ تُؤسَّس لعمليَّة التَّخاطُب النَّاجح لأَطرافِ الخطاب.

ب– محددات استراتيجية الخطاب:

إنَّ التَّنظير الذَّهني للفِعل اللُّغوي لدى المرسل في اختيار الإستراتيجيَّة محكومٌ بمراعاةِ عوامل وظروف عدَّة تَتغالبُ فيما بينها محددة الخيَّاراتِ المتاحةِ لهُ، ليَقومَ بالاختيار المناسِب له، من أَجلِ الحضُور الإيجابيَّ في الخطاب، والتَّفاعل البَناءِ في مقاماتِ التَّواصل الاجتماعي اللُّغوي، والتساؤلات الذي تفرضُ نفسها هنا:

- هل هناك عوامل تؤثر في اختيار هذه الإستراتيجيَّة أو تلك؟
- ما الذي يُلزم المخاطب أو يُخيَّرهُ في إتباع إستراتيجيَّة دونَ أخرى؟
- و بشكلٍ أكثر دقّةٍ واستيعاب، ما مُحدداتُ إستراتيجيَّات الخطابِ؟

[1]– يوسف تغزاوي، الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014، ص:184.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص:62.

إنَّ مُحدِّدات إستراتيجيَّاتِ الخطاب متعددةٌ، فمنها ما هو متعلقٌ بالمخاطب ذاته، ومنها ما هو مرتبطٌ بالمتلقي، ومنها ما هو محكومٌ بالموقفِ التَّخاطبيَّ، فَترجِيحُ إستراتيجيَّة على أُخرى يَحكُمهُ عاملان أساسيَّان هما:

ب-1- السلطة:

يُعَدُّ مفهومُ السُّلطة من المفاهيمِ الواسعة الفَضفاضَة التي تَسْتَعصِي على الضَّبطِ والتَّعريفِ ويَزدادُ هذا المفهوم مجازيةً في استعمالاته التَّخاطبيَّة، ففي مفهومها العامَّ تُعرَّفُ بأنَّها: «الحقُ في الأمرِ فهي تَستلزمُ أمراً ومأموراً وآمراً، آمرٌ له الحقُ في إصدار أمر إلى المأمور، ومأمورٌ عليه واجبُ الطَّاعة للآمر، لتنفيذ الأمر الموجَّه إليه.»[1]، فهذا التَّعريف يُركزّ على طرفي الخطاب في تفاوتِ وجود السُّلطة بينهما، لكنَّ القُصور في هذا التَّعريف يَتَّضِحُ في أنَّ السُّلطة ليست معطى سابق، فقد تُكتسَبُ أثناء العمليَّة التَّواصليَّة، كما أنَّها ليست عامَّة ومُجملة في جميع العمليَّاتِ التَّواصليَّة الاجتماعية (المؤسساتيَّة) لأنَّ المجتمعَ لا يَقُومُ على هرميّةٍ سلطويّةٍ تُكَرَّسُ فيها السلطة بمنطقٍ صارمٍ، بل تتأسَّس على علاقاتٍ وتواصلاتٍ لغويَّةٍ يحكمها في الأغلبِ التبادل الحميميُّ أو النفعيُّ في سلاسة من التَّفاعل الاجتماعيِّ ويَقومُ المرسل باختيار الإستراتيجيَّة وفقاً لما تَقتضيه السُّلطة ويتناسبُ مع السَّياق؛ إمَّا بِتفعيلها وإمَّا بالتَّنازلِ عنها[2].

كما ترتبط السُّلطة ارتباطا وظيفيّاً وثيقاً بالمكان الماديَّ، فالقاضي مثلا ذو سُّلطة نافذةٍ و هو في محكمته التي تُكسبُ أقواله قوةً إنجازيَّةً و: «من هنا تَبرزُ أهميَّة مفهوم المؤسَّسة في التَّحليل، لأنَّهُ يُترجمُ عن السُّلطة الضامنة لرصيد قيمة الملفوظاتِ حتى لا تكون كلاماً فارغاً، وسُلطة المتلفّظ هي ظلّ المؤسَّسة التي يَستمد منها قُدرته على إنجاز العمل القوليَ، والتي تَخضِعُ مُستعملي اللُّغة إلى التَعامل مع التَّراكيب كأشكالٍ تعاقديَّةٍ تُترجم عن تلك السُّلطة .»[3].

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري مرجع سابق، ص:278، نقلاً عن ناصيف نصار، منطق السلطة، مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، لبنان،ط1،1995،ص:07.

[2]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص:279.

[3]- المرجع نفسه، ص:280. نقلاً عن عثمان بن طالب، برغماتية وعلم التراكيب، بالاستناد إلى أمثلةٍ عربية، الملتقى الدولي الثالث في اللّسانيات، الجامعة التونسية، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ص:142.

وإذا حدثَ تفاوتٌ بين أصحاب السُّلطة قوةً ونفوذاً، حدثت بينهم صراعاتٍ تَقضي بإلغاء سلطة الطرف الأعلى لسلطة للطرف الأدنى، وتَجميد سُلطته في مواقف اتصاليَّة عديدة في التَّفاعل الاجتماعي اليوميّ.

ب-2-المقاصد:

يُمكننا بالتَّركيزِ على القَصِديَّة أن نقول بأنَّ التَّداوليَّة تُعد "علمَ المقاصد" أو "المقاصديَّة" فالقصدُ يُعدُّ الحافز الأَكبر والخلفية الحقيقية ولب العمليَّة التَّواصليَّة التَّخاطبيَّة لأنه: « لا وجود لأيَّ تواصل عن طريق العلامات دون قصديَّة وراء فعل التَّواصل، ودون وجود إبداعٍ أو على الأقل وجود توليفٍ للعلامات.»[1].

فالقصد مرتبط ارتباطا وثيقا بالسيّاق التواصلي فلا نستطيع الحديث عن تواصلية اللغة دون قصدية واعية، فالقصد في حقيقته بلورة للمعنى عند المرسل وهو يستلزم اختيار كيفية معينة في التعبير و: « اختيار استراتيجية الخطاب للتعبير عن القصد هي الخطوة الأولى عند المرسل إليه في التأويل.»[2].

وَمِن مُحدِداته القصد؛ العرفُ والعادةُ وبصورة تفاعلية تبادلية بين اللغة والقصد يَتشكلُ الخطاب، ولهذا: «يَحتج صاحب المغني على أنَّ القصد شرط في بلوغ الكلام تمامه معتمدا على ملاحظة أنَّ الكلام في الشاهد يكون أمارة لما يريده المتكلم بحيث يكون دليلا على مقصود المتكلم وعلى أنَّ المتكلم أراد أن يبلّغ مراده بمقصوده. »[3].

وينطلق القصد من المرسل(عقلاً و شعوراً) منتهيّاً إلى حيز الوجود الخارجيَّ في تمظهرات نظام اللُّغة واستعمالاتها، والتي يجب على المرسل امتلاكها. ولا يتعلق القصد بالمرسل فقط، بل تُعدُّ المواضعة اللغويَّة الجانب الآلي في عملية الخطاب (توصيل المقاصد) فهي: «تجري مجرى شحذ السَّكين وتقويم

[1]- يوسف تغزاوي، مرجع سابق، ص:193، نقلا عن: دولودال جيرار، و ريطوري جوويل، التحليل السيميوطيقي للنص الشعري، تر: عبد الرحمان بوعلي، دار المعارف الجديدة، ط1،1999، ص:25.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشّهري، مرجع سابق، ص:233.

[3]- عبد السلام المسدِّي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس،1981، ص:152.

الآلات والقصد يجري مجرى استعمال الآلات.»[1]، ولذا فإنَّ القصد يجاوز اللغة إلى المجاز، فيكسبها توسعاً في المعاني والدلالات وقد: «جعل كل من أوستين و سيرل المقاصد مركزاً في التفريق بين المعنى التعبيري (معنى الكلمات في الملفوظ)، وقوة الأفعال الغرضية (الإنجازية) أي: النتيجة التي يقصد المرسل نقلها.»[2]، وبذلك حولّت التداولية القصد من حيز المفاهيم الوصفية إلى حيز المفاهيم الإجرائية، التي تميز بين المعاني والدّلالات. وتعمل على إنتاج المعاني الجديدة في مراعاتها للسياق.

كما اعتبر أوستين و سيرل مقصديَّة المتكلَّم مكمن الفعل الكلاميَّ(القوة الإنجازيَّة) خاصة مع سيرل في التركيز على المحتوى القضوي، وبنظرة أكثر عمقاً نرُّد المقاصد إلى سلوكات لغويّةٍ موجودةٍ بالقوة، ولا تتحقَّق فعليّاً إلا بالممارسة اللُّغويَّة التواصليَّة عبر سلسلة الملفوظات، وهذا ما يعطينا فرصة تمكننا من معالجتها ف: « يجب أن يُنظر إلى الإنجاز بوصفه جانباً قصدياً لفعل كلامي في سياق الموقف الكُليّ التواصليَّ.»[3].

ويشير سيرل إلى الارتباط بين القصديَّة والشُّعور من وجهة نظر ظاهراتية في كون القصد هو موضوع الشُّعور، وبذلك فهو دائم الاتصال بالعالم، و يصَّنف القصديَّة إلى:

1-القصديّة الجمعيَّة:(قصدية النحن) وهي بصيغة (نعتقدُ)(نعملُ)(نقولُ).

2-القصديَّة الفرديَّة:(قصديّة الأنا) وهي بصيغة(أعتقدُ)(أعملُ)(أقولُ).

وتندرج القصديّة الفرديّة تحت القصدية الجمعية بصورة اختزالية، تبرز دور الجماعة اللغوية في تشكيل الخطاب الفردي، لذا كان من الواجب مراعاة المواضعة اللغوية في فهم المقاصد في العملية التواصلية التخاطبية.

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشّهري، مرجع سابق، ج1، ص:235.

[2]- المرجع نفسه، ص:231.

[3]- زتسيسلاف واورزتياك، مرجع سابق، ص:21.

ج- معايير تصنيف استراتيجيات الخطاب:

إنّ ظروف إنتاج الخطاب تتحكم فيها ملابسات السياق بالدرجة الأولى ومقصديّة المتكلم في تحقيق هدفه مع ضرورة وجود السّامع ولو ضمنياً لاكتمال حلقة التواصل، فيَعْمد المتكلم إلى اختيار استراتيّجية معينة تماشيّاً مع دواعي هذا السياق العام. فالخطاب في كونه: «كلٌّ منطوق موجه نحو الغير للتعبير عن قصد المرسل.»[1].

ومن هذا التعريف تتحدد محاور العملية التخاطبية، بين ذاتين مرسل ومرسل إليه، حيث يعبر المرسل عن قصده، محققًا هدفًا من هذه العملية.

ويقوم التصنيف للإستراتيجيات الخطابيَّة وفق مراعاة المرسل في إنتاج الخطاب للسياق وبالتفاعل أو العلاقة بين المرسل والمرسل إليه ووفق الخطاب وعلاقته بالمرسل، ولإدراك الآليات المستعملة فيه مثل: الاستدلال والحجاج، و الاستلزام الحواري أو مفهوم الخطاب.

وتحكم العملية التواصليَّة التخاطبيَّة مجموعة من المسلمات تعمل على هيكلة حضورها الفعلي والتفاعلي وهي كالآتي:

1-مسلَّمَة الحوارية، و "مقتضى هذه المسلمة أن لا كلام مفيد إلا بين اثنين، لكل منهما مقامان هما مقام المتكلم ومقام المستمع "[2].

2- المسَّلمَة التي تقول: إنَّ علامة الخطاب الرئيسية هي اللغة الطبيعية.

3- إنتاج الخطاب يكون بقصد ما، ولهدف معيَّن، يسعى المتكلم إلى تحقيقه.

[1]- يوسف تغزاوي، مرجع سابق، ص:188.

[2]- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص:97.

4- الدلالة المباشرة هي دلالة الخطاب الرئيسة على قصد المتكلم[1].

ووفقاً لهذه المسلمات ينتج المتكلم خطابه. بتعدد الاستراتيجيات وتفاوتها والتي يمكن ردُّها إلى معايير ثلاثة وهي:

1- المعيار الاجتماعي: وهو معيار طبيعة العلاقة بين المتخاطبين.

2- المعيار اللغوي الشكليّ: وهو يرتبط بقصد المتكلم تصريحاً أو تلميحا.

3- معيار هدف الخطاب.

وسنتناول بالتفصيل كل معيار على حِدَة:

ب-1- المعيار الاجتماعي :(العلاقة بين طرفي الخطاب).

تسبق –في أغلب الأحيان- العلاقة بين المرسل والمرسل إليه عملية التخاطب خصوصاً في إطار العلاقات الاجتماعية الموجودة سلفاً بين الناس في علاقاتهم فاختيار هذا الشكل من الخطاب دون الآخر يحتكم إلى دواعي السياق في مراعاتها من قبل المتخاطبين: «وعلاقتهما داخل السياق، بل ويتعلق بما هو خارج السياق.»[2].

ويمكن تركيزُها على المعرفة المشتركة، التي تعمل على بناء الافتراضات المسبقة بصورة شبه كلية ف: «المعرفة المشتركة والافتراضات المسبقة من العناصر التي تسهم في اختيار استراتيجية الخطاب.»[3].

وفي حال عدم وجود هذه العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، يسعى المرسل إلى تكوينها باستخدام الخطاب بصورة معينة، وقد يكون الهدف من العمليّة التخاطبيّة ذاته؛ هو إيجاد هذه العلاقة بين

[1]- يوسف تغزاوي، مرجع سابق،ص:188.

[2]- المرجع نفسه، ص:189.

[3]- المرجع نفسه، ص:190.

المتخاطبين مما يبرز: « دور اللغة التفاعلي، انطلاقاً من القيم الدلاليّة للمخاطب هي مدخل ممكن وهام، لتحديد شبكة العلاقات الاجتماعية، لأنَّ التعامل مع اللغة هو تعامل مع مضامينها .»[1].

وعليه فإن المرسل يتعامل مع المرسل إليه بإحدى العلاقتين الاجتماعيتين وهما:

- التقرب من المرسل إليه أو تقريبه.
- عدم الاكتراث بذلك في خطابه.

وتمثل كل حالة من هاتين الحالتين على الترتيب إستراتيجية تخاطبية: ويتجسد ذلك من خلال أدوات معينة وآليات مختارة وهما:

- الاستراتيجية التضامنية.
- الاستراتيجية التوجيهية.

أ-2-معيار شكل الخطاب:

إنَّ تجلي الخطاب في شكله اللُّغويّ. يبرزُ بشكل حدسيَّ علاقته بالمعنى الذي يبلوره القصد المتوخى من قبل المرسل في عمليّته التواصليّة وتتحكم المواضعة في شكل الخطاب. كون الخطاب مؤسساتي (اجتماعي) بالدرجة الأولى، وفي كل السياقات التواصليّة، فإنَّ المرسل أحد الاثنين:

-إما أن يكون مخبراً.

-إما أن يكون طالباً، ولإنجاز هذين الفعلين، كان على المرسل أن يستعمل في خطابه إستراتيجيتين هما:

1-الاستراتيجية المباشرة.

2-الاستراتيجية غير المباشرة(التلميحية).

[1]- يوسف تغزاوي، مرجع سابق ،ص:191، نقلا عن عثمان بن طالب ، البراغماتية و علم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية ،الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية،تونس،1985.

فالاستراتيجية المباشرة، يتوافق فيها الشكل بالقصد. فيكون إنجاز الفعل اللغوي من خلال الدلالة اللفظيّة، ولا يعني التطابق بين الشكل والقصد في هذه الاستراتيجيّة، أنّها تحظى الأولوية دائما في الاستعمال على الإستراتيجيَّة التلميحيَّة[1]، فقد تفضل الاستراتيجية التلميحية في سياق آخر وتكون أكثر ملاءمة، وذلك حسب ظروف السياق.

وقد يستعمل المرسل الإستراتيجيتين معا في الموقف الخطابي الواحد فيلمح في الكلام ثم ينتهي به إلى التصريح، أو قد يصرح للوهلة الأولى ثم يلمح في باقي حيثيات القضية المتبقية.

ب–3–معيار هدف الخطاب:

يعد المرسل صاحب هدف يحاول إيصاله إلى المرسل اليهم عن طريق عملية التواصل اللغوي وتتعدد الأهداف متفاوتةً قرباً وبعدًا، انضباط وحميمية (الإقناع) تأثير وترفيها (الإمتاع)، فقد يهدف الخطاب للسيطرة على المرسل إليه أو تغيير العالم من خلال الخطاب[2].

وتمثّل العملية الخطابية نشاطا تواصليًّا، يرمي إلى تحقيق هدف يتجلّى في: «القوة الدافعة التي تقف خلف التواصل الإنساني، و بالتالي فالهدف يؤثر في إنتاج الملفوظات كما يؤثر كذلك في تأويلها وتساعد الأهداف على تحديد علاقة الأفعال بالملفوظ، فنتلفَّظ بالتعبيرات التي نعتقد أنها ذات علاقة بالهدف الذي نريده.»[3].

والهدف من عناصر السياق التي تسبق إنتاج الخطاب، وله بذلك دور في التأثير على المرسل وتوجيهه فاختيار الإستراتيجيات الخطابية، من حيث أدواتها وآلياتها اللغوية المناسبة التي تكفل تحقيقه.

ومن الأسباب التي جعلت الهدف معياراً في تصنيف الإستراتيجيات ما يلي:

[1]– ينظر: يوسف تغزاوي، مرجع سابق، ص:191.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص:191.

[3]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ج1، ص:25.

- يَعدُ المرسل استعمال الإستراتيجية حسب هدف الخطاب من باب ممكن.

- أن المرسل لا يصرح بهدف الخطاب الذي يريد تحقيقه، إلا عبر إستراتيجية تتكامل فيها آليات كثيرة، يسعى المرسل إلى توظيفها بواسطة قدرته التواصلية.

ومعنى هذا الكلام أن الهدف هو عنصر السياق الأكثر أهمية، إنطلاقاً من أنه الباعث على التلفظ بالخطاب، وبذلك يتضح أن الناس يعملون بالطرق التي تيسر لهم تحقيق أهدافهم، إذ يعمل أطراف الخطاب، من خلال التفاعل، لجعل ملفوظاتهم ذات علاقة بأهدافهم التخاطبية، وبالتالي بأهدافهم الشخصية، إذ يحاول المرسل أن ينحو صوب تحقيقها وبالتالي فالمرسل إليه يخمن هذه العلاقة. وليس بالضرورة أن يشترك الاثنان في الأهداف، بيد أن الهدف الوحيد الذي يجب عليهما أن يشتركا فيه هو التعاون، وبهذا يمكن أن يحدث التفاعل[1].

فله في توجيه المرسل نحو انتقاء إستراتيجية معينة لخطابه، ووضوحه يغدو أمرا مطلوبا، مما يلزم معه أن يتلفظ المرسل بإستراتيجية تكفل وضوحه من خلال التلفظ وفقا لبعض المبادئ التي نصّ عليها الباحثون، مثل مبدأ التّعاون عند غرايس[2].

المطلب الثاني: إستراتيجيتي التّضامن والتوجيه

إنَّ تعدُّد المواقف والمقاصد لدى بخلاء الجاحظ، ينتقل إلى الممارسة اللغوية في مقامات التواصلية الحقيقية، التي يتعدد فيها النمط الخطابي بين الأخذ والرَّد. وبين البناءِ والهدم هذه الممارسات الخطابية في هذا التعدد حسب السياق هي ما يسمى ب: "إستراتيجيات الخطاب ".

وتدرك هذه الإستراتيجيات أثناء ممارسة فعل التواصل الاجتماعي من قبل المتخاطبين، إذ فيها تبرز الموهبة الفردية والجماعية (المكتسبة من الجماعة اللغوية) ما اكتسبوه من آليات ووسائل وأدوات خطابية فاعلة وناجحة ومؤثرة، بالتضامن في الكلام للمؤازرة والتأييد أو التوجيه باللِّين والحسن أو بالشدة والتسلُّط أو بالمحاججةّ والإقناع والأدلة والبراهين، أو بالتلميح والإرشاد وعدم

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ج2، ص:195

[2]- يوسف تغزاوي، مرجع سابق، ص:192-193.

التصريح لهذا الداعي أو ذاك وقد تتناوب هذه الأنماط والمناهج كضرورة خطابية فـ: « التزام المخاطب نهجاً خطابيّاً واحداً قد تتولد عنه نمطية خطابية؛ يمكن أن ينشأ معها الفتور وعدم التَّقبل والتجاوب من الطرف الآخر.»[1]، والناظر في ما وُظّف من آليات خطابيّة لدى المتخاطبين من بخلاء الجاحظ يلمس العفوية والبعد عن التكلف والتصنُّع فهو من وحي التجربة اللغوية الفردية المكتسبة، فهو من الكفاءة التداولية التواصلية للمتخاطبين، فهي من صميم الاستعمال اللّغوي الإبداعي اليومي لدى مستعمل اللغة العربية.

1– الإستراتيجية التضامنية:

1–أ– تعريف الاستراتيجية التضامنية:

يُعَّرفها عبد الهادي بن ظافر الشهري بقوله: « هي الإستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالاً هي محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه.»[2]، وبما أن هذا التعريف من الصنف النظري، الذي يستعصي على الدقة والصرامة فلابد أنّ نستوضحه ببعض سمات هذه الاستراتيجية والتي منها:

- التأدب في الخطاب ونفي النفعية من وراء الخطاب.
- الحرص على الحفاظ على عُرى التواصل بين المرسل والمرسل إليه.
- : «علاقة التكافؤ المفترضة التي من شأنها أن تربط بين الناس في جماعات تشترك في اهتماماتها وسلوكها وتمثيلها لذاتها.»[3].

[1]– إبراهيم براهيمي، مرجع سابق، ص:256.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ط2، ص:08.

[3]– المرجع نفسه، ص:09.

1–ب– عناصر الاستراتيجية التضامنية:

يساهم الحضور الاجتماعي المتقارب في تكوين منطلقات هذه الاستراتيجية التي يتحدد توظيفها في تقليص المسافة الاجتماعية بين المتخاطبين ومدى الاستعداد في المشاركة التواصلية ويمكننا تعداد العناصر الداعية لذلك في:

1_مدى التشابه / الاختلاف الاجتماعي.

2_ مدى تكرار الاتصال.

3_ مدى امتداد المعرفة الشخصية.

4_ درجة التأليف.

5_ مدى الشعور بالتطابق في المزاج أو الهدف أو التفكير.

6_ الأثر الإيجابي/ السلبي[1].

ويجمع هذه العناصر مساهمة في التأسيس للاختيار التضامني التخاطبي فـ: « أصل الأصول في هذا النموذج هو أسبقية العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب، فما تَكلَّم أحد إلاَّ وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكأنَّ الغير ينطق بلسانه.»[2].

وتستند الاستراتيجية التضامنية على شرط مهم، هو شرط الإخلاص بهدف التضامن المنزَّه عن كل غرض.

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط2، ص:12.

[2]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2،2000،ص:50.

1_ج_ الآليات و الوسائل اللغوية في الاستراتيجية التضامنية:

1–الكنية: الكنية هي كل اسم صُدِّر بأب أو أم، ونجد أغلب خطابات البخلاء فيما بينهم تستعمل الكنية. ومن ذلك ما نجده في نادرة الجاحظ نفسه مع محفوظ النقاش السالفة الذكر حين يقول محفوظ النّقاش للجاحظ: «يا أبا عثمان، إنه لبأ وغلظه. والليل وركوده.»[1]، واستعمال الكنية مؤشراً حقيقياً لإستراتيجيَّة التضامن.

2–إستعمال الإشاريات:

ومن ذلك ما يوظفه الجاحظ في بدايات نوادره في حوارات شخوصه، فها هو الجاحظ يسرد لنا قصة أهل البصرة من المسجديِّن:

قال أصحابنا من المسجديين: وهنا الضمير المتصل"نا" يدل على إستراتيجية التضامن. فـ(فولر) يسميها ب "نا" التعاونية. و «لإستعمال الإشاريات في الإستراتيجية التضامنية فوائد كبيرة .»[2].

وهي هنا تؤكد الانتماء لجماعة المسجديِّين من الجاحظ، وحتى من شخوص نوادره: «فقال شيخٌ منهم: ماء بئرنا–كما علمتم–مالح أجاج، لا يقربه الحمار ولا تُسيغه الإبل وتموت عليه النخل والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مؤنة. فكنَّا نمزج منه للحمار، فاعتل منه وانتقض علينا من أجله، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا. وكنت أنا والنَّعجة كثيرا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعتري جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصَّافي يذهب باطلاً ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضّأ، فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها وملّستها، حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها المسيل. فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء. ولولا التعبُّد لكان جلد المتغوِّط أحق بالنتن من جلد الجُنب فمقادير طيب الجلود واحدة، و الماء على حاله. والحمار أيضا لا تقزّز له من ماء الجنابة، وليس علينا

[1]–الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء ،تح: يوسف الصميلي، ص:122.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ج2، ص:28.

حرج في سقيه منه. وما علمنا أنّ كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه. فربحنا هذه منذ أيام، وأسقطنا مؤنة عن النفس و المال.»[1].

فهذه اللحمة الاجتماعية عند أصحاب الجمع والمنع (البخلاء) يتأكَّد بوصف الجاحظ لحالهم في قوله: «وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر... »[2].

ولو تتبعنا الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التضامنية لطال بنا المقام ولكن نشير لما لهذه الوشيجة المتمكنة بين البخلاء في الملفوظات الدّالة على التضامن فيما بينهم سلوك ولغة وخطابا.

2_ الاستراتيجية التوجيهية:

2_أ_ تعريف الاستراتيجية التوجيهية :

هي الاستراتيجية التي يعنى فيها المرسل بتبليغ قصده، وتحقيق هدفه من الخطاب دون النَّظر إلى طبيعة العلاقة القائمة بينه وبين المرسل إليه فيهمل التأدب والتخلق، كما يهمل قصد التأسيس للعلاقة من المرسل إليه.

و لما كان تركيز الاستراتيجية التوجيهية على وظيفة اللغة، فإنّ جاكبسون يُسمى وظيفة التوجيه في اللغة بالوظيفة الإيعازية أو الندائية[3]، وبوجهة نظرٍ تداوليةٍ تركِّز على نظرية الأفعال الكلامية، نجد أن أوستين صنف التوجيه في السلوكات، صنَّفه سيرل في التوجهيات.

[1]- الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، مصدر سابق، تح: يوسف الصميلي، ص:29.

[2]- المصدر نفسه، ص:29.

[3]- ميشال زكريا، الألسُنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان،ط2، 1975، ص:86.

2_ب_ الأدوات اللـغوية للإستـراتيجية التـوجيهية:

1– الاستفهام: يعد الاستفهام استراتيجية توجيهية بوصفه يقدم للمرسل إليه خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عنه[1].

يقول الجاحظ: «كنت في منزل ابن أبي كريمة وأصله من مرو. فرآني أتوضأ من كوز خزف فقال: سبحان الله تتوضأ بالعذب، والبئر لك معرضة؟ قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البصرة. قال: فتفسد علينا كوزنا بالملوحة. فلم أدر كيف أتخلص منه ؟ .»[2].

وهذا ما يسميه حسن وجيه بأسئلة الأقمعة: «حيث يبدأ المرسل بسؤال مفتوح ويعقبه بسؤال يبدأ في الانغلاق المتدرج للوصول إلى أسئلة مغلقة تماما.»[3].

فهذا من السلطة التي يمتلكها المرسل حينما يحاصر المرسل إليه في اختيارات مغلقة لا انفتاحات تأويلية أو تفسيرية لها إذ لابد للمرسل إليه من الإجابة، وكل إجابة انغلاق يقيد حرية المرسل إليه

لذلك نجد عبارة الجاحظ الدالة على ذلك في قوله: «فلم أدر كيف أتخلص منه ؟ .»[4].

2–الأمر: إن: «من أرجح معاني الأمر كونه يجعل من التلفظ بالصيغة دلالة على الوجوب.»[5] ولا يُحتكم في الأمر على البنية اللغوية له فقط بل إن السلطة تشكل قوته الإنجازية، فليست المسألة لغوية بحتة، بل هي لغوية تداولية[6]، ويُعد من أكثر الأساليب المستخدمة في الإستراتيجية التوجيهية. من ذلك ما يحكيه الجاحظ: «عن صاحب (له) قال: دخلت على فلان بن فلان، وإذا المائدة

---

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ج2، ص:116.

[2]– الجاحظ عمرو بن بحر، مصدر سابق، تح: يوسف الصميلي، ص: 19.

[3]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق ، ص:116.

[4]– الجاحظ عمرو بن بحر، مصدر سابق، تح: يوسف الصميلي، ص:116.

[5]– أوستين، نظرية أفعال الكلام، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 1991 ،ص:91.

[6]– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ج2، ص:102.

موضوعة بعدُ، وإذا القوم قد أكلوا ورفعوا أيديهم. فمددت يدي لآكل فقال: أجهز على الجرحى ولا تعرض للأصحاء يقول اعرض للدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، فأمَّا الصحيح فلا تعرض له. وكذلك الرغيف الذي قد نيل منه، وأصابه بعض المرق.»[1].

ورغم ما يكتنف هذا الأمر من استراتيجية تلميحية. إلا أن الاستراتيجية التوجيهية تبرز في توفر المرسل على السلطة كونه "المصنف".

ونجد أن هذه الاستراتيجية توجد بوفرة بين البخيل وغيره، خاصَّة الأكول الشّرِه الذي يأتي على أكل البخيل.

المطلب الثالث: إستراتيجيتي التلميح والإقناع

1- الإستراتيجية التلميحيّة:

1_أ_ تعريف الاستراتيجية التلميحيّة:

تعتبر المواضعة اللغوية في الغالب أساس التواصل، وبخاصة على المستوى الدلالي فالمرسل يمكنه من استعمال دلالات ألفاظ وفق المواضعة ودلالتها، فيكون بذلك قد استعمل الإستراتيجية المباشرة، لكنه عندما يعدلُ عنها فيلمح بالقصد عن مفهوم الخطاب المناسب للسياق، منتجاً دلالة يستلزمها الخطاب، ويفهمها المرسل إليه. وبذلك يستطيع أن يحقق المرسل أكثر من القصد، وذلك باستعمال الاستراتيجية التلميحية أولاً، وبالتركيز على المحور الرئيسي ثانياً.

ومؤدَّى هذا الكلام، أنّ إستراتيجيات المرسل في إنتاج خطابه لا تتجاوز نوعين من حيث شكل الدلالة، فيه:

- إمّا إستراتيجية مباشرة؛ يتضح فيه القصدُ مباشرةً دون عمليات ذهنيةٍ للاستدلال عليها.

[1]- الجاحظ عمرو بن بحر، مصدر سابق، تح: يوسف الصميلي، ص:42.

- وإمّا إستراتيجية غير مباشرة؛ تحتاج من المرسل إليه عملاً ذهنياً يتجاوزُ فيه الشكل اللغوي للوصولِ إلى القصد[1]، وهو ما تركّز عليه السّيميائيات حينما تصنّف العلامات إلى لغوية وغير لغوية.

وعليه يمكننا تعريف الاستراتيجية التلميحيّة: « بأنّها الاستراتيجية التي يعبر بها المرسل عن القصد بما يغايرُ معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقولهُ؛ إذ يتجاوز قصدهُ المعنى الحرفي لخطابهِ، فيعبرُ عنه بغير ما يقف عند اللفظ مستثمراً في ذلك عناصر السياق.»[2]، وبوجهة نظر تداولية تركز على نظرية الأفعال الكلامية ونستطيع أنْ نعتبر الاستراتيجية التلميحيّة من الأفعال اللغوية الإنجازية غير المباشرة.

1– ب – الوسائل اللغوية في الإستراتيجية التلميحية:

1. الكناية:

يعرّفها السكّاكي بأنّها: « ترك التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك»[3]، وقد استعمل الجاحظ في كتاب البخلاء من التلميح قدر معتبراً، لكننا نقتصر على بعض منها، وذلك في قوله: « قال ثمامة: لم أرى الدّيك في بلدة قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبَّة بمنقاره ثم يلفظها قُدَّام الدجاجة، إلا ديكَة مرو فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاجة ما في مناقرها من الحب. قال: فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء فمن ثم عمَّ جميع حيوانهم »، فهذا التلميح ثم العدول عنه إلى التصريح ليس إلا تلميحا آخر خفي؛ هو انتقاد الشعوبية وإلصاق صفة البخل فيهم.

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص:135.

[2]– يوسف تغزاوي، مرجع سابق، ص:202.

[3]– السكَّاكّي يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط6، 1992، ص:180.

2. التهكم (الاستعارة التهكمية):

وهي تستعمل لتبليغ المرسل مواقفه للآخرين، أو محاولة تعديل سلوكهم كما يرتبط التهكم ببعض القيم انطلاقا من الحقيقة التي مفادها أن آلية التهكم ترتبط أساسا بتغيرات المشاعر ، التوجيه أو التقويم ومما جاء في كتاب الجاحظ من هذه الوسيلة نجده يقول : « شهدت ثمامه ، و أتاه رجلان قال أحدهما: " لي حاجة "، فقال ثمامة : " ولي إليك أيضا حاجة "، قال: " وما حاجتك ؟ " قال: لست أذكرها لك حتى تضمن لي قضاءها ، قال: " بلى قد دريت " قال فما هي ؟ "، قال: " هي حاجة. وليس يكون الشيء حاجة إلا وهي تحوج إلى شيء من الكلفة"، قال :" فقد رجعت عمَّا أعطيتك"، قال: " لكني لا أرد ما أخذت" .

فأقبل عليه الآخر، فقال: " لي حاجة إلى منصور بن النعمان "، قال: "قل لي حاجة إلى ثمامة بن أشرس؛ لأني أنا الذي أقضي لك الحاجة، ومنصور يقضيها لي. فالحاجة أنا أقضيها لك وغيري يقضيها لي "، ثم قال: " فأنا لا أتكلم في الولايات ولا أتكلم في الدراهم من قلوب الناس ولأن الحوائج تقتص، فمن سألته اليوم أن يعطيك سألني غدا إن أعطي غيرك، فتعجيلي تلك العطية لك أروح لي. ليس عندي دراهم، ولو كان عندي دراهم لكانت نوائب القائمة الساعة تستغرقها. ولكني أؤنب لكم من شئتم، علي لكم من التأنيب كل ما تريدون " . قلت له : " فإذا أنَّبت رجلا في أمر لم تتقدم فيه بمسألة، كيف يكون جوابه لك ؟ "، فضحك حتى استند إلى الحائط»[1].

هنا نجد آلية التهكُّم للتلميح إلى النَّقد، دون أن يضطَّر المرسل إلى أن يصرِّح بما يجرح مشاعر الآخرين أو بما يعزلهم؛ لأنَّ خطاب التهكم يخفف المعنى التقويمي المقصود تبليغه، مقارنة بالمعنى الحرفي، وعليه فإن النقد التهكمي أقل وطأة من النقد الحرفي، وهذا ما أبرز الاستراتيجيات التلميحيّة التي يزخر بها كتاب البخلاء.

[1]- الجاحظ ، عمرو بن بحر المصدر السابق ، تح : يوسف الصميلي ، ص : 190-191

2_ الإستراتيجية الإقنـــاعية:

2_أ_ تعريف الإستراتيجية الإقنـــاعية:

وتتحدد هذه الاستراتيجية وفق معيار هدف الخطاب فمن: « الأهداف التي يرومُ المتكلم تحقيقها من خلال خطابه، إقناعُ المخاطب بما يراهُ، أي إحداث تغير في الموقف الفكري أو العاطفي لديه.»([1])، وتستعمل إستراتيجية الإقناع من أجل تحقيق أهداف المرسل النفعية قاطعة بالرغم من تفاوتها تبعاً لتفاوت مجالات الخطاب أو حقوله. ولأهمية هدف الخطاب وانعكاسه على إستراتيجية الخطاب.

ولقد استنتج طه عبد الرحمن أصلين للتخاطب المبني على قانون علم الكلام وهذان الفصلان هما: « العاقليّة والمعقوليّة، إذ ينبغي للمرسل في الأصل الأول، أي في العاقلية أنْ يكون سلوكه التخاطبي يتحدد بقصد معين، وكل سلوك قاصد يعتبر عملاً بحيث يضبطه المبدأ التالي: ليكن سلوكك موجهاً بهدف معين...وأنّ من شروط التعقل: أنْ يكون بمقدوره تحقيق الهدف المطلوب.»([2]).

2– ب– آليات الإستراتجية الإقناعية:

نجد أن أغلب مظاهر الحجاج عند الجاحظ في كتابه البخلاء يتركز في الحجاج التقويمي الذي يحاول صاحبه: « إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه– فهاهنا لا يكتف المستدل بالنظر ففي فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يُلقي، فيبني أدلته أيضا على مقتضى ما يتعين على

[1]– محمد العمري، " المقام الخطابي و المقام الشعري في الدرس البلاغي "،ع:05، مجلة دراسات، الرباط، المغرب، جانفي1989، ص:64.

[2]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص:154–155.

المستدل له أن يقوم به»[1]، وقد كان الجاحظ في مقدمته يحاول إصباغ الكتاب صبغة حجاجيَّة في قوله مجيباً عن سؤال هذا المتلقي المتخيل :« فأمّا ما سألت من احتجاج الأشحاء، ونوادر أحاديث البخلاء، فسأوجدك ذلك في قصصهم -إن شاء الله تعالى- مفرّقاً وفي احتجاجهم مجملة، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ما عندي دون ما انتهى إليّ من أخبارهم على وجهها»[2]، ونجد الاحتجاج عند الجاحظ مركزّاً في جنس الرسائل بقوة وكثرة، لكن في النوادر يخفُّ قليلاً ونجد ذلك في نادرته عندما يقول: «وسكر زبيدة ليلة، فكسا صديقا له قميصا، فلما صار القميص على الندِّيم خاف البدوات، وعلم أن ذلك من هفوات السُّكْر، فمضى من ساعته إلى منزله، فجعله برنكاناً لامرأته. فلما أصبح، سأل عن القميص، وتفقده، فقيل له: إنك قد كسوته فلاناً. فبعث إليه، ثم أقبل عليه، فقال: أما علمتَ أنَّ هبة السَّكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ وبعد فإنِّي أكره ألاّ يكون لي حمدٌ، وأن يوجِّه النَّاس هذا منّي على السُّكْر. فرُدَّه عليَّ حتى أهبه لك صاحِياً عن طيب نفس، فإنِّي أكره أن يذهب شيء من مالي باطلاً. فلمَّا رآه مصمِّماً أقبل عليه فقال: ياهناه!! إنّ الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك، فرُدَّ القميص عافاك الله. قال الرجل: إنِّي والله قد خفت هذا بعينه، فلم أضع جنبي على الأرض حتى جيَّبْتُه لامرأتي. وقد زدت في الكُمَّين وحذفت المقاديم. فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه. فقال: نعم آخذه؛ لأنه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك. قال: فإنه عند الصبَّاغ. قال: فهاتهِ، قال: ليس أنا أسلمته إليه. فلمَّا علم أنه قد وقع قال: بأبي وأمي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث يقول، جمع الشر كله في بيت، وأغلق عليه، فكان مفتاحه السكر»[3].

فنرى في هذه النادرة حشد لمجموعة من الآليات الإقناعية والتي منها:

1. الإرتكاز إلى المنزع الديني في السُّلوك، بالقاعدة الفقهية في مسألة عدم جواز هبة السّكران.
2. الأغلوطة الإغرائية في حب هذا البخيل للمدح صاحياً لا سكراناً.
3. الوعد بردِّ القميص بعد استرداده.

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشَّهري، مرجع سابق، ص: 253 – 254.

[2]- الجاحظ، عمرو بن بحر، مصدر سابق، تح: يوسف الصميلي، ص:09.

[3]- المصدر نفسه، ص:02.

وهذه السُّليّمة الحِجَّاجية التي بدأت بالحجة الأضعف في عرف البخلاء – على الأقل– ثم التعلّل بالسُّكْرِ، ثم الوعد بالرَّدِ بعد الاسترداد وبعد كل هذا نجد الطرف الثاني متصلباً في الرأي وتتضح لنا هنا هزيمة البخيل زبيدة، لكن في خطوة أخيرة يحاول الظفر بثوبه بعد أن صار في شكر آخر (جيبته لامرأتي) بقوله: نعم آخذه، فإنّه يصلح لامرأتي كما يصلح لامرأتك. وبعد هذا لم ينل زبيدة شيئا ليذكر نفسه ويذكرنا بالحكمة النبوية، بقوله: جمع الشر كله في بيت، وأغلق عليه فكان مفتاحه السُّكْر.

خاتمة

يعدُّ من أدبيات الختام أن يعمد الباحث إلى جمع شتات استنتاجاته وخلاصاته، محاولا تقديم إضافة معرفية نوعية تساهم في سيرورة العطاء العلمي وقد حاولنا لملمة النتائج التي أعملنا فيها مشرط الإجراء قدر الإمكان، ولم نقتصر على النتائج المتعلقة بالموضوع فقط، بل استخلصنا النتائج المتعلقة بالمنهج أيضا، ومن هذه النتائج وجدنا:

-ضرورة النّظر إلى كتابات الجاحظ بإقامة الرَّوابط اللِّسانية بين عناصر الخطاب مع عدم إِغْفَالِ المرجعيات الفكرية والعقدية والثّقافية للعصر الذي عاش فيه الجاحظ.

-إنَّ خطاب البخلاء يقوم على نظامين دلاليَّين تداوليَّين تتوفَّر فيهما مختلف الاستراتيجيات الخطابية يدوران مع القراءة؛ عَدَمًا ووُجُوداً هما: الجِدُّ والهَزْلُ، اللذان يصبحان آناء القراءة التداولية، بنية واحدة تتجانس فيها المقاصد، وتختلف فيها الوظائف؛ فتجانس المقاصد يتحقق بمعرفة دوافع البخل وأحوال البخلاء. أمَّا اختلاف الوظائف فيكمن في وظيفة الهزل التي تُضفي على القارئ إحساسا بالرَّاحة، وتمنحه الرغبة في الضحك. ووظيفة الجِدِّ التي تنتج النفع والفائدة.

- ذهب الجاحظ إلى المواربة المقاصديّة التي تشكّلت عنده بانتهاج الإستراتيجية التضامنيَّة التي توهم القارئ الغِرَّ بهذا الإعلان المقاصدي، حين يقول الجاحظ: « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تَبَيُّنُ حُجَّةٍ طَرِيفةٍ، أو تَعَرُّفُ حِيلَةٍ لَطِيفَةٍ، أو استفادة نَادِرَةٍ عَجِيبَةٍ، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت الجِدَّ». فهو يستبعد بذلك أن يتحصَّل القارئ المقاصد كلها.

- تعدُّ ظاهرة البخل المركَّز عليها في النَّادرة الجاحظية، النقطة التي غيَّرت من المزايا الثقافية للمجتمع، وأصبح " خطاب البخل والتّقتير " ضمن الكفاءة التداوليَّة للمتخاطبين في السيَّاقات التواصلية اليومية.

- أساس النَّادرة الجاحظية يتشكّل بآلية تداولية تضامنية، وقد أحسن الجاحظ توظيفها في انتقاد الشعوبية وانتقاص الأمويِّين مؤسساً لها على الخلفية المعرفية المشتركة للمتلقين في عصره، لذلك لقيت رواجاً واسعا في عصرها، وقبولا ممتدّاً إلى يوم الناس هذا.

- إنَّ استتباع الفعل التأصيلي التُّراثي للمفاهيم اللِّسانية الغربية الحديثة بالأجرأة، التي تنقل المفاهيم من حيِّز الوصفية إلى حيِّز الإجرائية التحليلية، والهروب بهذه المفاهيم اللِّسانية الغربية حدَّا يقتل فيها كل شائبة عقدية أو فكرية أو إيديولوجية أو حتى تاريخية؛ لأنَّها - في الأخير- محاصيل

مظروفة، تستعمل ولا يعتقد فيها، لأنَّ الاعتقاد فيها ينجرُّ عنه تكريس سلطة المراقبة المتعالية التي تُثني حركة سير المؤوِّل في اكتشاف مغاليق الخطاب.

ثبت المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

❖ **القرآن الكريم برواية حفص عن الإمام نافع.**

I- المصادر:

1. الجاحظ، البخلاء، تح: أحمد العوامري، علي الجارم، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر،ط1،1938.
2. الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5،1990.
3. الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تح: يوسف الصميلي، دار المكتبة الأصلية، بيروت، لبنان،دط،2012.

II- المراجع

4. إبراهيم براهيمي، استراتيجيات الخطاب في رواية الثلاثة لمحمد البشير الإبراهيمي، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، عنابة ، الجزائر ،ط1، 2013.
5. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 1986.
6. أحمد الجوّة: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، دار قرطاج، تونس،ط1،2007.
7. إدريس حمادي، المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1،1998.
8. امحمد الملاح / حافظ إسماعيل علوي، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، دار منشورات الاختلاف، ط :1 ، الجزائر العاصمة 2009 .
9. أندري بوفر، مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية، تر: أكرم ديري و الهيثم الأيوبي ،دار الطليعة ، بيروت، لبنان، ط3، 1978.
10. أوبيير دريفوس وبول ربنوف، ميشال فوكو (مسيرة فلسفية، تر: جورج أبو صالح، مر: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي بيروت ، لبنان، دط، دت، .

11.أوستين، نظرية أفعال الكلام، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 1991.

12.بريجيته بارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط2، 2010.

13.ج.ب. بروان، ج يول: تحليل الخطاب، تر محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، دار النشر العلمي والمطابع، الرياض، السعودية، د.ط، 1997.

14.جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا، دط، 1998.

15.جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع ، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1،2006.

16.الجويني، الكافية في الجدل، تح: فوقية حسين محمد، مطبعة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، مصر، د ط، 1979.

17.حسين مروة، تراثنا...كيف نعرفه، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان،ط2 ،1986.

18.حمادي صمود: من تجليات الخطاب الأدبي، قضايا نظرية، دار قرطاج، تونس، ط1،1999.

19.حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) منشورات الجامعة التونسية، تونس، دط،1981.

20.الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد وذيله المستفاد، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

21.دومينيك مونقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2005.

22.روبرت دي بوغراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

23.زتسيسلاف واورزنياك، علم النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر،ط1،2003 .

24.سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي ، الدار البيضاء، المغرب ، ط3،1997.

25.طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

26.طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب،ط1،1998.

27.طه عبد الرحمن، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2،2000.

28.عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس،1981.

29.عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ،ط1 ،2010.

30.عبد الله الغذامي، الحداثة في المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، بيروت ، الدار البيضاء، د ط، 2004

31.عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، دار كنوز المعرفة ، عمان، الأردن، ط2.

32.عبده الراجحي ، اللغة وعلوم المجتمع ، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان ،ط 2 ، 2004.

33.عثمان أبو زنيد ، نحو النص اطار نظري ودراسات تطبيقية ،عالم الكتب الجديدة ، عمان ، الأردن ، ط1 ،2009.

34.عزت السيد أحمد، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، اتحاد كتاب العرب، دمشق ، سوريا، دط،2005 .

35.علاء الدين بن رمضان السيد، ، صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء للجاحظ، دار المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2000.

36.علاء الدين هلال، " مفهوم استراتيجية العلوم الاجتماعية"، الفكر الاستراتيجي العربي، ع:40، دارالنهضة العربية، القاهرة، مصر، أبريل 1982.

37.علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ، تح: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2،1986.

38.علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري: من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2000، .

39.علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1،1994.

40.عمر بلخير ، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط1، 2003 .

41.فان دايك، النص و السياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب،دط،2000.

42.فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمد علي الحامي صفاقس، تونس،ط1، 2001.

43.لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي ،تر : محمد يحياتن ، دار القصبة ، الجزائر ،دط، 2006 .

44.محمد عابد الجابري، التراث والحداثة – دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1999.

45.مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في الأسس والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم (04)، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، د ط، 1998.

46.منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1،2004.

47.ميشال زكريا، الألسُنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان،ط2، 1975.

48.نوري جعفر، الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، دار الآفاق، بيروت لبنان، دط،دت.

49.هاني العمد، صورة البصرة في بخلاء الجاحظ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق، ط1، 1990

50.يوسف تغزاوي، الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014.

III- مذكرات وأطروحات:

1. فادية مروان أحمد الونسة، السرد عند الجاحظ، البخلاء أنموذجاً، أطروحة دكتوراه ، إشراف بشرى حمدي فتحي البستاني ، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2005/2004.

IV- مجلات:

1. سميرة سلامي ،" إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ "، مجلة التراث العربي ، ع:106،اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، نيسان 2007.
2. ضياء الصديقي،" فنية القصة في كتاب البخلاء الجاحظ " ، مجلة عالم الفكر، مج:20، ع:04، الكويت، يناير- فبراير- مارس، 1990.
3. عبد الرحمن العبدان و راشد الدويش، " استراتيجيات تعلم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية "، مجلة أم القرى، ع:16، منشورات جامعة أم القرى، الرياض، السعودية، 1997.
4. عبد الفتاح كيليطو،"صورة البخيل، بطلاً"، " مجلة فكر ونقد "، ع: 04،" مجلة إلكترونية" أسسها محمد عابد الجابري،1997. موقعها على الشبكة http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/
5. عبد الكريم الجويطي، بخلاء الجاحظ ونهاية التاريخ، مجلة فصول، ع:64، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر،2004.
6. عبد الواحد التهامي العلمي، " تجنيس النادرة بحث في المكونات والسمات "،عمان(مجلة ثقافية شهرية)، ع،عمان، الأردن، .
7. مازن الوعر ،"صلة التراث اللغوي باللّسانيات"، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ع 48 ، 12 جويلية 1992.
8. محمد العمري، " المقام الخطابي و المقام الشعري في الدرس البلاغي "،ع:05، مجلة دراسات، الرباط، المغرب، جانفي1989.
9. نورمان فيركلو، الخطاب بوصفه ممارسة إجتماعية، تر: رشاد عبد القادر، الكرمل (مجلة فصلية ثقافية)، ع:04، مؤسسة الكرمل الثقافية، بيروت، لبنان، صيف 2000.

ثبت
الموضوعات

الفهرس	الصفحة
الشكر والعرفان	
ملخص البحث	
مقدمة	أ– ب – ت
تمهيد	09 - 05
المبحث الأول: كتاب البخلاء بين الجنس الأدبيّ والسّياق	
المطلب الأول: البنية التّداولية للنّص	27 – 13
المطلب الثاني: النص والسياق	41 - 27
المبحث الثاني : إستراتيجيات الخطاب في النادرة العربية	
المطلب الأول: إستراتيجيات الخطاب: المفهوم والمحددات ومعايير التصنيف	55 – 42
المطلب الثاني: إستراتيجيتي التّضامن والتوجيه	62 - 55
المطلب الثالث: إستراتيجيتي التلميح والإقناع	66 - 62
خاتمة	69 - 68
ثبت المصادر والمراجع	75 - 71
ثبت الموضوعات	77